عبده خال

صُدفة ليل

رواية

الساقي

صُدفة ليل

صدر للمؤلف عن دار الساقي

- مدن تأكل العشب
- الطين
- فسوق
- لوعة الغاوية
- قالت حامدة: أساطير حجازية
- قالت عجيبية: أساطير تهامية
- ترمي بشرر... (الجائزة العالمية للرواية العربية ٢٠١٠)
- الموت يمرّ من هنا
- الأيام لا تخبئ أحداً
- ليس هناك ما يبهج
- ثُباح
- الأوغاد يضحكون

عبده خال

صُدفة ليل

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتماً بمشاركة هذا الكتاب مع شخص آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافية لكل شخص. وإذا كنت تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٦

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٦

ISBN-978-614-03-0042-2

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٢، فاكس: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٣

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

أخي محمد مكي الصائغ:

نحن سلالة رحم واحدة، بقيت أنت مظلتنا الكبيرة؛

فكم هي الكلمات غزيرة – يا محمد – وكم هو الامتنان عميق!

* * *

وإلى ابنتي آمال هاشم الجحدلي

تأتين مع الصبح أغنية شجية فيفيض بك القلب بهجة ويستزيد...

أنفس شح

{وَأُحضِرَتِ الأنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحسِنوا وَتَتَّقوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعمَلونَ خَبيرًا} (النساء: ١٢٨).

{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ المُفلِحونَ} (الحشر: ٩).

١

أنا صاحبة "الكيلوت الأحمر".

كلّ رجال الحي سمعوا بذلك "الكيلوت". ووفق ما وصلني من أقاويل أن أيدي المسئين – قبل المراهقين – تناقلته وتعددت ألوانه في ما بعد، وكل من أمسك بلونٍ ادّعى أنني وهبته إياه.

هل أحتاج – يا سليم – أن أذكّرك بنفسي؟ أما أنا فلم أنسَك قطّ.

رسالة ممتدة بين الماضي والحاضر
يتردّد صداها بين الآباء والأبناء.

خط الحجاز الممتد مئات الكيلومترات يخترق مدناً وقرى وجبالاً وهضاباً، منغرساً بين كثبان رملية تشي بصحراء هالكة. خطٌ كلما طال امتداده اقتات على صبر السائقين العابرين في سرابه المتوالد وجلَدهم المتعاقب. ومنذ أن انطلق البيشي لاحظ أن سيارته البيجو تراخى عزمها ولم يعد شعار الأسد الذي توّج سنين مجدها شرساً في ذبّ حبيبات الرمال المتلاحقة، فخارت قواه من اجتياز مفازة نجد العظيمة.

كان ذلك في منتصف أغسطس العابسة بقيظها وسمومها اللاهبة حينما وصل البيشي بسيارته الأجرة إلى أولى محطات الوقود في مركز ظلم. كانت سمته التباطؤ لنشوء خصام بين رغبتين: المكوث أو المواصلة. كانت نزعته الأولى التزود بكمية كافية من الوقود توصله إلى مركز الحوية، ونازعته خاطرة الكشف على علّة محرك سيارته الذي أظهر إعياءً غير معهود، فصفح عن عهدٍ كان قد قطعه على نفسه بزيارة صديق قطن في قرية وادي النمل جمعتهما رحلات الذهاب والإياب قاطعين المسافات الطويلة في طريق شاخ عبره ملايين المسافرين ولم يترحموا على ذكراه في مرحلة شيخوخته...

اتّخذ قرار المكوث متحلّلاً من أيّ التزام حيال أيّ راكب، فقد عزف عن حمل ركابٍ جدد والعودة بهم في

الطريق نفسه، فما إن أفرغ حمولة ركابه على مشارف مدينة الرياض حتى قفل عائداً بصحبة ولده فائز الذي اتخذه مساعداً له في سفرياته.

– يا فائز، أقترح إدخال السيارة إلى إحدى الورش لإصلاح العطب الظاهر من خلال قياس الحرارة...

لم يعره الفتى اهتماماً كما يجب، فأعاد تذكير نفسه بمخاوفه:

– يبدو أن العطب سيمنعنا من المواصلة، ولو ركبنا جموح عنادنا فسوف تتوقف السيارة في أيّ مكانٍ قفر، عندها تكون النتيجة الموت المحقق.

تتضخم خشية التوقّف في المناطق المقفرة، خاصةً في ذلك الخط الممتد كثعبان تلوّى على نفسه ولم يعد يعرف موقع جحره.

– بهذا العطب لن أصل إلى الحوية أو ما دونها...

الرغبة في الاسترخاء هاجمت فائز على حين غرّة، وفتحت في مخيلته سراديب من الأمنيات يتقدمها تناول وجبة تُسكت خصام أمعائه. هذه الأمنية كانت سبباً مضاعفاً في الشدّ على أوتار مشاعر البيشي تحبباً بالمكوث، فأظهر تسامحاً إزاء مطالبة ابنه بالمكوث وتناول وجبة العشاء. أما نفسه فكانت تؤاقة لـ"شرب حجر شيشة باعشن"، ومع انبساط مزاجه أظهر طبع السخاء الذي ينفيه عن نفسه دائماً ويغلق عليه الباب لكي لا يطمع فيه أحد:

– سأدعوك إلى مأدبة ستقسم بها لأيام طويلة.

– لا أريد القسم لأيام، أريد أن أقسم على امتلاء بطني الآن.

مضى يلاطف ابنه إلى أن توقف عند مقهى اشتهر بتقديم شرائح اللحم المتبل المطهوة على الجمر بعد أن يغطى بحجارة الصوان.

في الليل يكون جبل ظلم أكثر سواداً من الليل نفسه، وفي الليالي المقمرة تنداح الرمال الفوسفورية مشغةً بمعاني الجمال، فتكسب عتمة الجبل منظراً بديعاً، وتكون لحظات السمر مع تناول شرائح اللحم أغنيةً يردّدها المسافرون.

توقف البيشي أمام المقهى واثقاً بأنه سيجد بغيته، فاتّسعت رئتاه ليعبّ من هواءٍ نشط فجأةً حاملاً رائحة الشواء إلى منافذ الأنوف، وأطلق ضحكةً لتأكيد المراهنة.

– سوف أجعلك تقسم.

يسهر المقهى حتى ساعات متأخرة من الليل، ولا يغلق أبوابه في وجه أيّ مسافر. مقهى وجد نفسه غريباً ووحيداً، يخاصمه أهل المدينة ولا يزورونه إلا لِماماً خشية اللوم والتقريع، والحجة أنّ الأكل في السوق دناءة، وكل مكان ما عدا البيت يعتبر سوقاً تتم فيها ممارسة الدناءة.

مقهى قذف في فلاة مجاورة للخطّ الرئيسي، يحتضن محطة الوقود أو أنها هي التي تحتضنه، والاثنان يتقاسمان المناظر الكئيبة والأجساد المهلهلة

ذات القامات المنخورة بغربتها وملابسها الرثة. مقهى اكتسب شهرةً واسعة بين المسافرين بما يقدمه من شواء فريد، ومع اتساع سمعته استقطب بعض الأهالي الذين يستنكفون من الأكل في المقاهي أو الاستراحات، فكانوا يأتونه ملثمين...

وبعدما كان المقهى يستقبل الغرباء من المسافرين عثر الأهالي على طرق عدة توصلهم إلى بوابته المنخفضة والتستر ريثما يتم تجهيز الكمية المختارة من اللحم المشوي.

كان البيشي يمني نفسه ببلوغ مدينة الطائف قبل حلول الظلام، وبسبب العطلة كان من المتوقع إظهار تضجره إلا أن مزاجه الرائق رتّب الوضع والوقت اللذين لا يتنافران بين العطلة ولحظات الأنس.

– سننام الليلة في المقهى.

أطلق تلك الجملة غير آبه بسماع الرد.

أوقف سيارته بجوار حافلة كانت على وشك الانطلاق، فالمسافرون يتنادون بقرب لحظة الرحيل، وكثير منهم يتسابقون راكضين ليندسّوا داخل الحافلة.

دفع البيشي ابنه محفزاً إياه على اختيار المكان المناسب ريثما يفرغ خزان خصيتيه من مائه:

– لا أوصيك يا فائز، وأنا أبوك، أن لا تختار مكاناً صاخباً ولا رثاً.

وكأن قحف جمجمة فائز تعرّضت لعملية تبخر سريعة ومركزة فاختار أصخب الأماكن وأقذرها.

تلقى صفعتين على هامته جزاء اختياره، فأظهر عناداً طفيفاً ومكابرة على أن اختياره كان صائباً مؤكداً أنه كان ينتظر نهوض بعض المسافرين من مقاعدهم، هذا العذر سرعان ما تم تأكيده بخلوّ مكانين غادرهما صاحبيهما على عجلة من أمرهما، وهما يطلقان الشتائم القميئة بسخاء مفرط ولا يُعرف لمن كانت موجهة.

تحرّك فائز إلى إحدى الأريكتين فيما كانت أجواء المكان عابقة برائحة الشواء.

جلبة رواد المقهى غير مألوفة، وازدحام المسافرين في جزء من الموقع يثير الاستغراب.

رفع البيشي صوته عالياً:

– يا قهوجي.

وهَمَّ بتكرار النداء لولا التفاتة نادلٍ يمني كان على مقربة منه وهو يحاول ثني بعض المغادرين عن الرحيل، وعلى صوت النداء أقبل منفرج الأسارير:

– تأمر يا عم.

دهش البيشي من بشاشة النادل واستعداده لتلبية ما يشاء من طلبات، واستملح خُلقه وخَلقه، سائلاً عن اسمه وبلده:

– اسمي طارش.

طارش في الثلاثين من العمر، وأغلب الظن أنه تجاوز منتصفها. كان يتنقل سريعاً بين مقاعد المسافرين ببشاشة وتودد، وإزاء كل طلب يسكب كلمات الود بوفرة.

– ما بال المقهى يفتقر إلى العمال؟
– لا عليك سأوفر لك ما تحتاجه من طلبات، ثق بي.
– ألا توجد ورشة ملحقة بالاستراحة؟
– بلى. أجلب لك ما تحتاجه وأصف لك موقعها.

فطن البيشي إلى أن المسافرين ما إن يسترخوا في مقاعدهم حتى يهبّوا مغادرين المكان، وبعضهم يترك ما قُدّم لهم من شرائح اللحم وملحقاتها ويسارعون إلى الخروج.

تنقلت عيناه في جوف المقهى تتبع خطوات المغادرين، وهاله منظر تساهل المحاسب معهم من غير أن يتقاضى نقوداً لقاء ما طلبوه.

كان هذا يحدث بصمت من دون أيّ كلمة، حتى ظن البيشي أن ما يحدث ما هو إلا لعبة متفق على قوانينها: يقف المسافر أمام المحاسب ويهمس في أذنه ثم يغادر المكان صامتاً.

المشاهد تزدحم في حركة استفزازية، الكل يعطي أذنه للكل، والعيون تتسع وتضيق على العمال الثلاثة المنشغلين بتلبية طلبات النزلاء الجدد، يسجلون الطلبات وقبل أن تحضر طلباتهم تتسع الآذان لسماع خبر ما يجعلهم ينفضون مؤخراتهم ويغادرون المقهى، يظهر معظمهم الاستعداد التام لإطلاق كلمات نابية بعد أن يتجاوز الواحد منهم عرصة المقهى.

فجأةً تسارعت الأحداث وكأن نزلاء المقهى حضروا لمشاهدة بثّ مسلسل انتصفت حلقاته. ففي موقع مقابل لواجهة المقهى وقف رجل يتوعّد مهدداً بإحراق كل العاملين الذين دلسوا وخانوا الأمانة، فتجمع حوله

نفرّ من أهالي المنطقة، وتسابق البعض إلى إشعال النار وجلب حطب من الشجيرات الهشة أو تكسير جذوع وأغصان يابسة، وأخذت الحمية بعضهم فأطلقوا رصاصات مدوية في فضاء المكان.

هدأ من ثورة هؤلاء المجتمعين صوتٌ ثقيل وحازم يظهر أنه من أعيان أهالي المدينة متحدثاً إلى من خالطهم من زوار المقهى:

– يبدو أنكم غرباء عن المركز، فما حدث خلال الأسبوع الماضي من إهانة في حقنا لا يرفعها إلا الدم... وقد استجابت الدولة لأمرنا ولهذا فقد صدر أمر ملكي بقطع رقاب هؤلاء البغاة.

واستند الرجل المتحدث إلى رشاشه مقسماً قسماً غليظاً أن مقترفي هذا الجرم سيتم قطع رقابهم يوم الجمعة القادم وأمام المسجد الكبير.

– رقاب من؟ ولماذا؟

– كأنك لم تسمع بما حدث؟

زاد صخب المجتمعين وأخذ في الانتظام والهدوء تنفيذاً لأمر ذلك الرجل الذي أوغر صدور المجتمعين على من تبقّى من العمال في المقهى.

– كل هؤلاء الكلاب تواطؤوا على ارتكاب الجرم.

قفز صوت من بين المجتمعين:

– لا تتركوا البقية، اقطعوا رقابهم قبل إخوتهم.

هاجت الأصوات مؤيدةً، بينما تزعّم المعارضة رجلٌ ستيني مهدئاً غضب المتجمهرين:

– تعلمون أن الحكومة قبضت على الفاعلين وأمرت بتنفيذ القصاص، فما ذنب هؤلاء المساكين؟

في هذا الاسترخاء انسلّ النادلون والمحاسب من خلف المقهى وأطلقوا أقدامهم للريح، ففطن لهربهم أحد المطالبين بدمائهم فتبعهم مصوباً باتجاههم بندقية صيد تعطلت رصاصتها في الماسورة الصدئة، فكزّ على شفته السفلى ندماً على تضييع الفرصة.

كانت الفرصة مؤاتية تماماً لعملية قتل مباشرة، حين تعثر ذلك العامل فتقلصت المسافة بينه وبين الرصاصة القاتلة، لينهض سريعاً وقد اعتراه انفعالٌ غريب.

حضور عطب البندقية كان تسجيلاً لحياة قادمة، فالحياة لا تسلم نفسها للموت بسهولة.

فيما بعد حمل العامل ديناً للصدأ الذي عطّل انطلاق الرصاصة، وركض يتحسّس مواقع في جسده إذ كان بالإمكان أن تكون الرصاصة في رأسه أو صدره.

بين نجاة العامل وحسرة المطارد وقف الصدأ لتجديد الحياة. الصدأ الذي نحاربه كلما سكن في أدواتنا أو ممتلكاتنا يمكنه أن ينقضّ علينا في حركة ارتدادية، فالحياة لا تجعل كل مخلوقاتها على طبع واحد، فهي تكسبهم وجوداً مغايراً عندما تريد لذلك الشيء أن يبقى ضمن سكانها الأحياء. والصدأ، الكائن الميت، غدا حياً في ذاكرتين: ذاكرة اللحظة وذاكرة ذلك العامل.

انفضّت الاستراحة من زوارها وعمالها، وظل البيشي نزيلها الوحيد وسخّر ابنه ليأتيه بما يُبقي مزاجه رائقاً، فجلب الشاي والشيشة وتخلّى عن تلبية أوامر أبيه بتفقّد مقياس الحرارة أو انخفاض الهواء في الإطارات الخلفية.

لم يتوقّع أحد من أهالي المدينة رؤية هذا الليل الهادئ، فهناك كل شيء يفيق متربّصاً بتتبع الخدع الأزلية التي مارسها الليل منذ عهدٍ طويل، بدءاً بإلقاء ردائه وانتهاءً بسفوره، وكلما تضاعفت كثافة الظلمة غدت الكائنات أشدّ حرصاً على عبور مساحة ذلك الهدوء بتريث، هذا العبور هو من أسرار الليل الأزلية: الكشف والإخفاء.

أراد البيشي ممازحة ابنه:

– انظر إلى جمال هذا السواد، فلو سكنت أنت وأبيك ظلمته لما رآكما أحد.

يعرف أن الرأس التي يحملها ابنه لا تستطيع التفريق بين ذنب الدابة ورأسها. منذ طفولة البيشي وأسياده يقولون له إن شعاع العقل من خصائص السادة، وعندما تحرر أراد اختبار تلك المقولة فكان يجرّب صدقيتها على أفراد أسرته، وكم أحبطته المحصّلة التي أثبتت تدنّي الإشعاع في عقل ابنه مع اكتنازه بكثافةٍ متزايدةٍ من الظلمة.

سرح كثيراً مع كركرة الشيشة، فمع كل "شفطة" نَفَس يتصاعد الدخان فيمتطيه ويسرح.

حياته مسافرة، فقلّما يهنأ بالمبيت في حضن زوجته، ومع طول السفر لم تعد ترتضي وضع رأسه بين أحضانها، ومنذ مدة سكن بينهما الصمت وأصبح فائز طريقاً للكلام المختصر، ولكي لا يكون طريقاً سهلاً لتمرير الكلمات فيما بينهما، قرّر أخذه في أسفاره البعيدة.

فائز لا يختلف عن أمه كثيراً، فهي عديمة الإشعاع، ويتأكد له أحياناً أنها تحمل جمرةً مطفأة اسمها العقل.

شعر أن أمعاءه تصيح به طالبةً الطعام، فنهض متفقداً أحوال المطبخ ووجد أكلاً متنوعاً يفيض عن حاجته لثلاثة أيام. أقام له ولابنه مأدبةً كبيرة، وفي باله أن فائزاً سيحلف على روعة هذه المأدبة في ما تبقّى له من أيام.

المكان فارغ ليس فيه سواهما. راودته لحظة تحدّ داخلي بأن يقتعد كل المقاعد، وتنوعت الرغبات فكان يمارس كلاً منها بنزقٍ طفولي. فجأةً توقف استعداداً لإطلاق ضحكة عالية وهو يوقف ممارساته الطفولية.

– إذا كانت زوجتك بجمرة منطفئة فأنت لم تصل إلى رتبة رماد!

أحدث فوضى في المكان وأسقط وأقام أدوات كثيرة، ونأى بنفسه عن التفكير في ما أحدثه من تلف، والتفت لابنه:

– إن لم تُعد الأشياء إلى مواضعها كما آمرك فسأطردك عارياً.

وانفجر ضاحكاً وهو يتذكر أن عقله لم يصل إلى رتبة الرماد، فيما كان فائز ينظر إليه بارتياب.

– دع أباك يمارس هذه المداعبة لبعض الوقت.

سرعان ما تخلّى عن تقمص ذلك الدور الطفولي وعاد حازماً متفكّراً في ما ارتكب صاحب المقهى من فعلةٍ نكراء، وراح لسانه يردّد:

– حمير!

لم يرق له حديث صاحب الورشة عن تسعيرة إصلاح العطب، وزاده ضيقاً تأجيل موعد تسليم السيارة. استبد به الغضب وراح يلعن الجشع الذي يدفع العمال لاستغلال حاجة الناس اليهم. أفرغ لعناته بينما أطرافه لا تزال تستمد شحناً إضافياً لإظهار غضبه من المغالاة وجشع الناس.

استعار صاحب الورشة لغة غير الآبهين بما يحدث في الكون:

– هنا لن تجد شخصاً يُصلح لك سيارتك فأحملها على ظهرك إلى أقرب مدينة إن أحببت.

كانت كمية التهكّم التي حملتها تلك الجملة تنوء عن حملها النفوس الصابرة.

تيقّن البيشي أن تلك السخرية يجيزها الواقع كونه لن يستطيع حمل سيارته على ظهره. لان وسحب ثورته من خلال نفسٍ عميق:

– متى أستطيع استلامها؟

– ليس أمامك سوى يوم السبت.

نبرته الجافة أثارت أعصاب البيشي لكنه نجح في السيطرة على غضبه، وردّد:

– يوم السبت... يوم السبت.

لأربع ليالٍ استولى البيشي على الاستراحة كان خلالها النزيل الوحيد والنادل الوحيد والمحاسب

الوحيد والمنتظر الوحيد.

أمضى ساعات طويلة ينتظر خروج سيارته من الورشة مع حشر الأماني في رأسه بأن تمكّنه الظروف من تلقين صاحب الورشة درساً في تلقي اللكمات الخطافية.

في المقهى الشاغر لم يكن يشغل بال البيشي أي شيء سوى صعوبة تبديد الوقت والابتعاد عن مكان يشبه صمت المقابر.

لا أحد يظهر، وإن ظهر توارى سريعاً كأنه جاء لدفن ميت وقفل راجعاً نحو الحياة.

طريق الحجاز لم يعد يلد المسافرين، اكتفى بعبور سيارات محدودة تاركةً ضجيج محركاتها يلامس الأذن للحظات متبرّئةً من الهواء الساخن المنبعث من إطاراتها المتهالكة. كانت ذمّة الصحراء مستودعاً واسعاً لكل الضيق الذي نفر من عجلات المركبات.

تحولت المساحة المشسعة بمحطة الوقود والمقهى إلى أطلال. فالطلل ليس فقط ما تدمرت مبانيه وإنما في كل دمار يبقي الأشياء تحنّ لسابق عهدها، وهذه الاستراحة غدت طللاً بتدمير المجاميع المسافرة التي دأبت على أخذ قسط من الراحة بين جوانبه.

يبدو أن سمعة لحوم الحمير طارت في الآفاق إذ إن أحدهم توقف على البوابة لاعناً البيشي ظناً منه أنه صاحب المقهى:

– تُقدّم للناس لحوم الحمير يا من لا يخاف الله؟

وأضاف شتيمةً لاذعة لم يتمكّن البيشي من استدراكها، فقد مضى صاحبها بعيداً.

وهرباً من ذلك الصمت طلب البيشي من ابنه تحريك أقدامهما صوب السوق الصغيرة للمدينة، علّ شيئاً ما يجذبهما ويقلّل كمية الضجر الذي أصابهما داخل المقهى الفارغ.

سلكا الطريق الشمالي وهما لا يقصدان جهةً محددة. كانت رغبة رؤية سيارتهما من خلف قضبان الورشة حاضرة، وعندما لم يجداها في مجمع السيارات المعطوبة تيقّن البيشي أن سيارته تخضع للفحص من قبل المهندس، فواصلا السير نحو المدينة، ودخلا السوق... سوق متواضعة تشكو قلّة المتسوقين وتقشف أنواع السلع ورداءة التصنيع وعزوف المشترين وكِبر البائعين.

جلس البيشى فوق برميل انغرس وسط الرمل محاولاً دفع نفسه لرؤية شيء جميل في المكان النائم، فلم يجد شيئاً يمكنه أن يعزز الظن بأن هذا سوقٌ. تنافرت أعداد قليلة من المتسوقين وظلّ الباعة متسلّحين بكِبرهم، هاربين بأبصارهم إلى اتساع الصحراء تاركين لبضاعتهم كشف رقة الحال.

اقتحم المكان شخص لا يمكن تصنيف أي جهة يتحدث باسمها، له قامة فارعة وملامح قاسية تختلط غبرة وجهه بغبرة ملابسه الزيتية الرثة، أطرافه تتحرك

كموجة متدافعة وقد سمح لصوته الجهوري بالنفاذ من آذان مستمعيه:

– غداً سينفّذ القصاص في مجرمي مقهى الحمير وسيكون ذلك مقابل الجامع الكبير... الحاضر يُبلغ الغائب.

انبعثت أشعة الشمس قويةً – على غير عادة – معجّلةً بدخول المصلين إلى داخل المسجد ليتفيؤوا، مرسلةً أشعةً مسلطةً تكوي الأجساد والرؤوس، ويزداد جبروتها كلما مضت إلى كبد السماء. كان الوصول إلى موقع تنفيذ القصاص مهلكاً ويحتاج إلى إيمانٍ مضاعف يفي بمشاهدة العقوبة وتحفل الجو الهالك.

كأنّ الأمام استشعر عزوف المصلين عن الذهاب لمشاهدة القصاص، فاستشهد بآيةٍ في معرض ذلك التحفيز: {وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.

فكان خطأ استشهاده محل جدل نما بين مصلّي الصف الأول حتى تجرّؤوا على مقاطعة الخطبة عدة مرات ولم يحفل الإمام بتلك المقاطعات مفضلاً مواصلة خطبته على أصواتهم المستنكرة:

– هذه الآية تحثّ جماعة من المسلمين لحضور إقامة حدّ الزّنا وليس حدّ القصاص؟

كان الاعتراض وجيهاً، ولكي يتخلص الإمام من اعتراضهم نادى بإقامة الصلاة، فسبق الإقامة شجارٌ بين مؤيّدٍ ورافض، ونزع كل فريق إلى تخطئة الآخر، وكانت الفجاجة حاضرة بينهم فلم يرتدع أيٌ منهم بقولٍ أو تذكير، ففضّل بعض المصلين الانسحاب على أن يتقدّمهم ذلك الجاهل كما وصفه أشدّهم خصومة.

درجة الحرارة في الخارج شاوية للوجوه، وكلما ثقلت ملابس السائر فيها تمنى لو أنه يستطيع خلع ملابسه لأمرين: تخففاً ولتحويلها إلى مظلة تقيه حرارة الشمس. ملابس البيشي كانت وبالاً عليه فألوانها الغامقة وبشرته السوداء غدت مصيدةً محكمة لتجميع الأشعة الحارقة ودسّها تحت جلده.

غياب ولده أثار سخطه، فلم يكن يتوقع انسلاخه من صلاة الجمعة، وبعد حيرة سؤال: أين أجده؟ تحرك مع المتجهين إلى ساحة الإعدام وكلُّ الشتائم التي يعرفها ألحقها بابنه.

في ساحة الإعدام وجده متقدماً الصفوف ولم يتوقع أن يكون فصل الرؤوس أحبّ إليه من أداء صلاة الجمعة.

تلاقت عيونهما عند شروع الضابط في قراءة التهم وحيثيات الحكم، وأخذ الأهالي يتربّصون بأيّ المحكومين سيبدأ السياف تنفيذ الإعدام. كان صاحب المقهى حاسر الرأس متأخراً عن اثنين من عماله، فعندما جاء دوره ارتفعت أصوات المتجمهرين مطالبين السياف بتنفيذ القصاص تعزيراً، إلاّ أن مهارة السياف مكّنته من تأدية مهمته من غير أن يشعر المعدوم نفسه.

أراد السياف أن يُكافأ على مهارته فرفع سيفه باتجاه الجمهور فبادلوه إشارةً بإشارة، وارتفع التصفيق والصفير إلاّ أنّ رجلاً له سمة الوقار اكتفى بوصف المصفقين بأنهم على غير هدى.

كانت الرؤوس المقطوعة متفرقة يجمعها تدفق الدماء ولبده، وفزع العيون، وتعفر الرؤوس. غترة أحدهم جاورت رأس صاحب المقهى وظلت في مكانها بعد أن تمّ نقل الجثث. في ذلك الجو الحارق ظهرت حدأتان معاندتان الجوّ وسرعة إخلاء المكان بمثابرة رجال الإسعاف بنقل الجثث والرؤوس عشوائياً، ومع ذلك استطاعت حدأة منهما الهبوط بصورة خاطفة على رأس المقتول الثاني ناقرةً جذع رقبته المقطوعة ومحلقةً في عين الشمس حاملةً قطعةً مدماة علّها تتناولها في مكانٍ آمن وعلى مهل. بينما لم يكن من نصيب الحدأة الأخرى سوى التنقل بين بقع دمٍ طازج لم يحن الوقت لأن يجتمع عليها أيّ سربٍ من الذباب.

بعد تنفيذ القصاص توزّع الأهالي بحثاً عمّن تبقى من عمال تلك الاستراحة وشرر غضبهم يسبق وعيدهم:

– إذا الدولة لم تقتصّ من الجميع فنحن من سيكمل القصاص.

لم يكن ذلك القيظ الشره رادعاً لخفوت رغبتهم، فانطلقت سياراتهم تذرع الطرق الموصلة إلى بيوت المدنية وهم يواصلون إطلاق الأعيرة النارية في الهواء وهي الوصية التي تواصوا بها لو تمّ الإمساك بأحد العمال.

بعضهم ناقشوا احتمالات تواجد العمال في غرف المقهى، ولم يكن يدور في خلد أحد منهم الذهاب إلى

المقهى لولا أن حكيمهم – كما ظهر – ذكّرهم بمثلٍ قديم لم يعرفوا معناه:

– "مِن مأمَنِهِ يُؤتى الحَذِر".

انساقوا خلف سيارته الشيفروليه مدمدمين ومتوعّدين بسلخ أي عامل يجدونه.

في الفضاء الملحق بالمقهى سبقت الكلاب مقدم الأهالي بنباحٍ متقطّع كأنه شيفرة تبادلوها جزعاً على انقطاع أرزاقهم، فقد ظلت التخمة تلازم أمعاءهم كأيام رخاءٍ دامت طويلاً، فصاحب المقهى كان يمكّنهم من التهام زوائد وبقايا الحمير المذبوحة ويدعوهم إليها.

كانت الكلاب تقوم بمهمة نبش مردم الحمير المذبوحة، فهال الأهالي مواقع النبش المتعددة مما دفع المشاعر للتهيّج ومهاجمة المقهى من كل مكان، يسبقهم توعّد بقتل رجل أمام كل حمار ذُبح.

ضُوّبت بنادقهم في كل الاتجاهات مبقين على عيونٍ متقدة ترمي بشرر، وأقدامٍ تجسّ الأرض جساً. تصلّبت ساعة الحائط في الجهة اليمنى من المقهى عند الساعة العاشرة صباحاً معلنةً عقارُها انتهاء عمرها الزمني قبل هذه المداهمة بأيام.

أكوام الجرائد المقذوفة بالقرب من بوابة دورة المياه حملت خبر فضيحة الأهالي. اختلفت عناوينها لكنها اتّسقت مع الخبر "على خط الحجاز: استراحة تقدّم لحوم الحمير وجبةً لمرتاديها"، وتجمّع الجرائد بتلك الهيئة يشي أنّ المقترفين للفعلة جمعوا كل نسخة

ليتلفوها أو يخبئوها عن عيون المسافرين، وبعض من النسخ وضعت بعضها فوق بعض مخبأةً تحت صناديق الجراك. المهاجمون للمقهى يظهرون يقظةً متناهيةً، ولاختبارها ارتطمت آلة حادة بباب حديدي فتوزّعوا في جهات مختلفة وخلال وثبة واحدة كانت بندقيتان موجهتان صوب فائز وهو يعالج قضيباً معدنياً خُشر في شقّ بابٍ حديدي.

ذلك الارتطام نبّه الباقين وحفّزهم لمعرفة مصدر الصوت. أحدث أحد الممسكين بفائز جلبةً وهو يجرّه من ترقوته حتى توسّط المجموعة مظهراً استحقاراً لفريسته:

– ليس هنا إلا هذا العبد الصغير.

فترت ابتسامة من فم حكيمهم تدلّ على أنه يمارس السخرية مرغماً.

– من جاء بهذه البومة إلى هنا؟

شعر حكيمهم أنه لم يفِ فائزاً حقه من التندر فأكمل:

– عيناه تغريان بالتصويب بعيار ناري لإيقاف جحوظهما.

فأطلقوا ضحكةً ساخرة وهم يصعدون سيارتهم قبل أن يتطاير الغبار للحاق بغضبهم الممزوج بالضحكات المستهجنة.

تواجد فائز في عمق المقهى بعد أن تبادل مع الأهالي تطيراً بتطير. وأخرج سيجارة من جيبه واتجه إلى المطبخ باحثاً عن كبريت علّه يستمتع بسيجارته قبل أن

يداهمه أبوه فيكتشف شربه للدخان. كانت النظافة في المطبخ تعاني من إعياء شديد وغير قادرة على تحمل إعياء إضافي. تنقل فائز بين فناجين وبراريد الشاهي وكانون الجمر المنطفئ وأواني القلي وقامات الشيش المرصوصة المجاورة لرؤوس الجراك التي لم يتم ملء فوهاتها منذ ثلاثة أيام. وفي مخزن أعدّ لجمع الأشياء المستخدمة عثر فائز على علبة كبريت، كان محتاجاً لثقابٍ واحد، أشعل به سيجارته وهو يتطلع عبر مرآة كبيرة جاورت ملصقات دعائية تمجّد مشروباً غازياً وصابوناً وجبنة دعايتها لم تزعزع ثبات قناعة أنها غير صالحة للذوق الشعبي.

في كل مرة يتطلع فيها إلى المرآة لا تروق له ملامحه المستفزة بعينين جاحظتين وشفتين غليظتين أعلاها أكبر من أسفلها وأسنان معوجة وسواد بشرة يجعله نافر الهيئة.

الشيء المفرح الذي يستشعر به هو انتصاب هيكله بدءاً من قامته المديدة ونفور عضلات زنديه وثقل رجليه على الأرض.

اليوم عشعشت في رأسه خميرة حلم، وأيقن أنه امتلك ميزةً ليست لأحد سواه. فبالرغم من السخرية والتشنيع اللذين لاحقاه إلا أنه كان فخوراً بنفسه، فكل من رآه عائداً من موقع القصاص تنبأ أن جسده المفتول قادر على حمل جبل.

تكبكب في الطرقات واضعاً قضيباً معدنياً على خاصرته، بعدما احتزم به بواسطة حبل مجدول وجده في سوق المدينة. منظره العجيب أثار سخرية العابرين لكنه كان الملجأ الذي اعتصمت به مخيلة فائز علّه يصبح مُهاب الجانب لو أنه تحوّل إلى سيّاف. كانت صورة المستقبل ترتسم أمام ناظريه، فيشدّ على ذلك القضيب كأنه سيفٌ بثار فتقلّده كسيافٍ محترف.

ربما دنت منه جملة تشعّ بما في داخله:

– النفوس الضيقة تحتاج إلى حلم يوسع مسامات ضيقها.

كانت السيارة بحاجة إلى قطعة غيار ليس بالإمكان توفرها إلا في مدينتي الرياض وجدة، هذه الصدمة لم يكن يتوقعها البيشي ففغر فاه ونسي أمنية أن يذيق صاحب الورشة اللكمات الخاطفة. مع ذلك الخبر العاقد للسان لم ينبس بكلمة، وعندما استشعر المهندس وقع الصدمة تضاحك رويداً رويداً قبل إنزال الطمأنينة على قلب زبونه:

– تمكنت من تدبير قطعة مستهلكة وكيفتها لسيارتك.

لمع وجه البيشي وتحللت ضيقته فأظهر نصاعة أسنانه:

– وهل تفي تلك القطعة بالغرض ريثما نصل إلى جدة؟

طمأنه المهندس بحصوله على نتيجة لا بأس بها بعد تجريب السيارة، ولكي لا تبدو جملته مهزومة :

– يمكن لهذه القطعة أن تعمل من غير عطب لسنة إضافية.

اتسعت ابتسامة البيشي:

– المهم أن أصل إلى جدة بدلاً من حمل السيارة على ظهري كما سبق وقلت لي.

تبادلا الابتسام إلا أن انشراح البيشي تعكّر فجأةً للثمن الباهظ الذي طلبه صاحب الورشة، وبعد مساومة

طالت وتفرعت ارتضى الطرفان على مبلغ توسط رغبتيهما.

توقف البيشي أمام محطة الوقود وملأ خزّان سيارته حتى فاض البنزين وجرى على الأرض فتمايل ضاحكاً وهو يحدث نفسه:

– ما شكب يصل ثمنه إلى عشرة ريالات لكن لا أحد هنا جاهز لتقبّل النقود.

جلس أمام المقود منتظراً ظهور ابنه من داخل المقهى فهاله المنظر الغريب الذي ظهر به، وقد توشّح لفافةً سوداء وثبّت على خاصرته قضيباً حديدياً فارداً قامته ومتشبّهاً بخطوات السيّاف الذي رآه كفارس يخوض غمار الوغى غير متحفز للنكوص.

أصر فائز على البقاء بتلك الهيئة مهوّناً الدهشة التي اعترت ملامح أبيه بإظهار كل أنواع التودد، وصعد متثاقلاً مردّداً:

– ستكون محظوظاً وأنت تُقِلُّ سياف البلد.

تلقّى صفعةً على هامته كالعادة تاركاً لأبيه سرد سيرته وسيرة أجداده.

– يا بني، لم يكسب أبوك حريته إلا منذ سنوات معدودة فهو من جذر كُتبت عليه العبودية منذ لعنة حام بن نوح. وتجدني الآن أحنُّ لقيد العبودية، أحنُّ لأسيادي الذين أعتقوني، أحنُّ إليهم وهم الجاحدون؟! ألا ترى؟ ليس لي شيء أنتمي إليه، فحملت المدينة التي نشأت بها كلقب يثبت جذوري إلى مكان محدد. انظر... فبعد

أن تخلّى عني أسيادي انتميت إلى مدينتهم. وليتهم يستعيدون ما منحوه لي من حرية.

في قلبه حنين متسع لأن يعود إلى ما كان عليه أجداده، لذا يغضبه جداً تنطّع ابنه وتشوّفه إلى المناصب الرفيعة، وكلما عنت مخيلة فائز القفز من على عارضة نسبه وبشرته السوداء أعاده إلى الواقع القريب:

– يا بني، أحببت أسيادي واستعبادهم إياي، فأنا عبدهم ابن عبدهم حتى لو أعفوني من عبوديتي. كانوا يعاملونني كما يعاملون أولادهم، فاحمد ربك أنك جئت في زمن يقال عنه إنه زمن الحرية، ولو تقدّمت قليلاً لرأيت رقبتك مدلاّة من حبل تُجرّ يومياً إلى أسواق النخاسة، وفي كل لحظة وأنت مملوك لشخص ما، تباع غير مأسوفٍ عليك، وليس مهماً أن تُباع لقساة القلوب أو سفلة القوم أو إلى نخاسٍ يتاجر بك. هذا ما لا تعلمه، فاحترم حريتك بمقدار، ولا تتشوف إلى منازل أسيادك...

وشدّد في وصيته الأخيرة:

– سيكون ولدك عبداً ابن عبد، فهذه العجينة من تلك الخميرة!

في أذني فائز تحوم الكراهية لما يسمع، فللكلمات طنينٌ مزعج، فكان يهدّئ انزعاجه بفتح نافذة السيارة علّ الهواء العابر يتبرّع بأخذ الشيء الكثير من كلمات أبيه ويدفنها في تلك الرمال الجيّاشة.

– بدأت حريتي بأسوأ عمل يمكن أن يمارسه عبدٌ حديث عهدٍ بالحرية. لم أجد من يكفلني أو يطعمني، فأحسست أن أسيادي ألقوني في قعر المجهول. رحم الله الملك فيصل، فقد وقفت على بابه قائلاً:

– والآن ماذا أفعل بحريتي؟

أطلق البيشي ضحكةً رنانة مستذكراً وقفته أمام الملك فيصل عارضاً عليه مشكلة الحرية. نظر إلى عيني ابنه فلم يجدها محفّزةً أو مستنبطةً أو منسجمةً فاستعاد يقيناً أن عقل ابنه في حالة ظلام دامس، وكان راغباً في مواصلة استذكار ذكريات غالية:

– أنت "يا بجم" ألا تقول ماذا حدث؟

تنبه فائز إلى أن من واجبه حثّ أبيه على مواصلة حديثه، فأطلق جملةً أشعرت البيشي بالهيبة كونه تحدّث إلى ملك:

– طيب أش قلّك الملك؟

– أظنه كان عالماً بما يجوس في خاطري فوهبني أول سيارة لأنطلق بها في هذا الخط الموحش وكأن مهمتي الأساسية الالتقاء بغرباء وتوديع غرباء، لأكتشف أن مصاحبة المسافرين كالدخول إلى نُزل فارغ ليس فيه حياة.

كان البيشي مشطوراً بين حقيقة وضعه الحالي وماضيه الذي لا يفارقه. كان يعاني من المساحة الشاسعة بين العبودية والحرية لم تتزن فيها نفسيته

فتجده في كل موقف ينجذب لتقديس الحالة التي تسيطر عليه.

فور مغادرته المقهى، مستلماً خط الحجاز، وقبل أن يبتعد كثيراً عن الاستراحة التي استوطنها لأربع ليالٍ، اعترض طريقه شخص بإشارات ملحة للتوقف، وكانت المفاجأة أن ذلك الشخص هو نفسه النادل الذي احتفى به أول وصوله المقهى:

– أنت؟

– أرجوك أنا وأسرتي معرضون للموت إن لم تقلّنا من هذه المدينة.

– وما شأنك حتى تتعرض للموت؟

– أطلق أهالي البلدة وعيدهم بأن يذبحوا كل من كان يشتغل في الاستراحة ولم أجد بدّاً من الهرب.

– وأين أسرتك التي تتحدث عنها؟

– خلف هذه البيوت الخربة.

ترجّلا من السيارة وسارا خلف النادل الذي تعرّجت خطواته. سلكا خطوطاً ضيقة بين خرائب تساقط بعضها فوق بعض، واستقر ممشاه بالانعراج إلى خرابة تهدّمت جدرانها الخلفية المطلّة على صحراء شاسعة. كانت أسرة النادل تحتمي خلف أربعة حمير جرداء أمسكت بأعناقها امرأة وصبيتان:

– حمير أيضاً!

أراد النادل إظهار حقيقة أن قطعان الحمير تسرح بين المنازل الخربة، لتجد الحشائش الهاربة من قيظ

الصحراء إلى ظل يقرب بينها وبين الحياة، فمدّ يده مشيراً إلى أعدادها الوفيرة:

– لم أجد وسيلةً تقلّني مع أسرتي إلا هذه الحمير وكنت أفكر بركوبها ريثما نبتعد عن المدينة.

– ويبدو أنك متدرّب على صيد الحمير.

– لا والله، فهي بالكثرة الكاثرة حتى أنها تُسلم لك قيادها من غير جهد مبذول.

وافق البيشي على نقل تلك الأسرة، ورأى ضرورة الاقتراب إلى أقرب نقطة يُمكن تلك العائلة من الدخول إلى كبينة السيارة بسرعة وسهولة.

استعدّ البيشي لذلك القرار مانعاً النادل من مصاحبته والبقاء مع أسرته لنقلهم بالسرعة القصوى.

تفقّدت عيناه أمتعتهم المكوّنة من أغطية وحصائر وكومة من الملابس وأطعمة محفوظة وعصي وقربة ملئت بالماء.

– أفضّل ترك هذه الأمتعة فهي معيقة وليست ذات جدوى.

وأراد تلطيف جو التوتر:

– حتى الحمير لا داعي لها!

استبقى فائزاً معهم مردداً:

– لكي تكون مطمئناً بأني سأعود وإن كنت أتمنى تركه في أي مكان لا أعود منه!

عاد مقتفياً الخطوات نفسها التي مشاها متخذاً الحيطة والحذر من أن يلحظ أحد العابرين – للخط

الرئيس – تردده فينكشف أمره.

قاد سيارته على مهل وضجيج محركها يكاد يخلع قلبه كلما خطر بباله انكشاف أمره بتهريب ذلك النادل، وبين لحظة وأخرى يفرك أذنه متخلصاً من وهم سماع أصوات الأعيرة النارية.

وقف في ظهر الخرائب محفزاً ابنه ومن معه بالإسراع قدر المستطاع. كان النادل وأسرته قد وصلا إلى موقع السيارة واندس جميعهم في داخلها محاولين الإصغاء الجيد لوجيب أفئدتهم، بينما كان فائز يتعثر بالقضيب المعدني المحشور بين خاصرته وفخذيه وكلما تأخر في التحرك جاد عليه أبوه بالشتائم المقذعة. لم يصل فائز إلى الموقع إلا بعد أن احترقت أعصاب ابيه كما يجب.

تلقى الصفعة المعتادة وهو غير راضٍ من الانقياد لطلب أبيه والتخلّي عن ذلك القضيب. كان هذا العناد بسبب وجود الصبيتين. وقتها اتسعت في أعماقه رغبة المفاخرة:

– أنا سيّاف البلد.

استلم البيشي خط الحجاز الموازي لآخر قرية توصل الساكنين بعضهم ببعض، فترامت سعة الصحراء بكثبانها ورمالها وصفرتها الذهبية فيما كانت الأعيرة النارية تخرق مسامع البيشي بينما كان النادل وأسرته يسكبون عليه مفردات الشكر والامتنان على صنيعه.

مدينة جدة تقف على بحرها فاتحةً ذراعيها للقادمين وترقب مجيء البيشي بضيوفه وبقية العابرين لسماحتها علّ مضطهَداً يستنشق فيها الحب والحرية.

ومن أطلق عليها ثغر الحرمين عرف أن الأماكن غير المبتسمة لا يمكن لها استقبال كل الأعراق بوجهٍ كئيب، فالاختلاف العرقي بحاجة لفمٍ باسم.

تتمايل جدة على أمواج بحرها وترقص احتفاءً بالقادمين من فجاج الأرض إلا أن البيشي تأخر عن الموعد فأكملت العروس رقصتها...

ترجّل البيشي من سيارته في قرية أم السلم متخلصاً من سماع دويّ الأعيرة النارية ومعتذراً للنادل وأسرته من طول المسافة التي لم يتوقف فيها للحظات مما أرهق العائلة وأضناها ولم يمكنهم من التزود بما يُؤكل أو يُشرب.

لهذا قدّم لهم تفسيراً لا غبار عليه:

– كنا في خطر عظيم إما السلامة أو نُذبح جميعاً.

كانت الأسرة في إعياء تام وحضن الأم يتقطّر من بقايا استفراغ ابنتيها المتواصل، والطفلتان تشكوان من دوار عاصف منذ مغادرة طريق "الهدا" الذي أسلما فيه

لأحشائهما حرية سفك ما كان فيها من بقايا السنة الماضية.

كانت مغادرة السيارة انعتاقاً من صنّ التقيؤ وحومة الكبد وتهوّع الأفواه المفتوحة بسبب الدوار العصبي.

استنشاق الهواء جعل الجميع يسترجع شيئاً من القوة مع الإمساك ببوابات السيارة لمعرفة جهة الوصول ومن ثم الاستلقاء بأي صورة كانت.

– عفواً نسيت اسمك، فاسمك سرعان ما يتلاشى من الذاكرة.

– طارش... اسمي طارش يا عم.

– احمل طفلتيك وزوجتك إلى هذه الاستراحة ففيها ما يحتاجونه وسوف يصلكم الغداء كما تشتهون.

ظل طارش يلقي عبارات الشكر والثناء بينما كانت ابنتاه غصنين ذابلين تعلّقا بجذع أمهما بصعوبة بالغة.

هلّل وكبّر البيشي حين حقّق في جمال وفتنة الطفلتين وتسامح مع ما كان منهما من تقيؤ متواصل، إلا أن ذلك التسامح كان وبالاً على فائز حين أمره بتنظيف المقعد الخلفي من كل ما علق به.

ولم يغفر فائز لأبيه هذه الاستهانة وهو يحفّزه على تنفيذ ما أمر به.

ما زال فائز متأبطاً القضيب الحديدي ومتشحاً بتلك القطعة السوداء محاولاً إعطاء قامته المديدة بعداً إضافياً. فتريث إلى أن غادرت أسرة طارش المكان:

– ما كان ينبغي التقليل من اعتدادي أمام الغرباء!

قال جملته بتوتر ظهر في نبرة صوته المفخمة، فاقترب أبوه منه وألقى على هامته الصفعة المعتادة.

– من يضع عرفاً على هامته لا بدّ أن يكون ديكاً.

لم يفهم فائز مغزى والده فمرّر يده متحسساً موقع الصفعة كأنه يمحو أثرها وأردف:

– ديك، كلب، حمار، الذي أعرفه أن لدي طاقة تهز الجبال.

فائز شخصية تدعو للاستغراب، فقد واصل جنون العظمة وممارستها في مستويات مختلفة في أعلاها وأسفلها. بدأت أعراض هذا المرض بالظهور حينما وسوست له أحلامه بأنّ كل الرقاب خاضعة تحت نصل سيفه البثار. أما في السابق فكان جنون العظمة مستتراً بتصرفات غبية... على أية حال هي غبية في الماضي والحاضر.

كانت عيناه الجاحظتان تتلصصان على البنتين كلما أوصل إليهم طلباً متمنياً ازدياد الطلبات، وكلما أوصل طلباً اتسعت عيناه في سرقة تلك الملامح العذبة، واختبر مقدرته في حزر أيهما أكبر.

كانت الملامح تشي أنّ العمر ما زال متنعماً بعذوبة وجهين لم يظهر سباقه في أيّ منها تجاوز أولاً...

أمام الفتنة الكل يراجع ما ينقصه من تجفل لكي يتمّمه، ولم يكن فائز شاذاً عن ذلك، فقد حاول جاهداً

إخفاء تقرّحات جلدية تمددت من ساعده الأيمن إلى المعصم وحرص على عدم الاستجابة لغواية الهرش في ما تبقى من الرحلة.

عادت الأم مع طفليتها وقد أزالت عنهما وعثاء السفر، فبدت نضارة الطفلتين، وهما تفتعلان الحبور مع محاولتهما المتكررة لجذب أمهما للحديث فلا تجدان من أمهما إلا قرصاً يطال أطرافهما الظاهرة.

منذ أن غادروا مركز ظلم لم يُسمع للأم صوت فقدّر البيشي حياءها والتفت إلى زوجها متودداً:

– أبو من يا طارش؟

– لي هاتان البنتان أكبرهما قطوف والأصغر بسمة... فأنا أبو قطوف.

خمسون ريالاً ارتبكت أوراقها بين أصابع طارش وثمة شعورٌ متلجلج عقد لسانه فقفز عدة عثرات لتخرج جملته بمشقة:

– لو لديّ فائضٌ من هذه النقود لدفعت بها إليك.

– حسنٌ، وماذا تبقى لديك؟

– لا شيء.

– وكيفك ستدبّر مقام أسرتك وإعاشتهم؟

أظهر طارش عجزاً لم يكن على باله وخرجت منه جملة متلعثمة:

– لا أعرف لكن الله لا يترك عبيده.

– ونِعمَ بالله... ربما كانت جملتك هذه فتحاً لأن يسخّرني الله في خدمتك، فلا تبتئس، سأتدبر أمرك وأمر أسرتك.

بذل طارش جهداً في إخراج الكلمات ونثرها على مسامع البيشي، ذلك الجهد أتعب زوجته فجمعت عواطفها المنكسرة داخل العباءة وزفرت من غير الجرأة على الكلام. يعرف طارش طبع زوجته فأوقف استرسال الكلمات من فمه:

– سوف أستضيفك في بيتي إلى أن يفرج الله كربك.

مال فائز نحو أذن أبيه فانثنت رقبة طارش نحو زوجته حامداً لفائز هذا الوقت المستقطع كي يخرج من

فلك الإحراج. ضغط على يدها مخففاً من لومها المبطن ومسترجعاً اعتداده بنفسه أمامها. استدعى التخافت بين فائز وأبيه بعض الوقت.

– كيف تساعده وهو يسخر من عبوديتنا؟

– متى سخر؟

– عندما قال ان الله لا يضيع عبيده كان يقصدنا.

كظم البيشي غيظه ولم يستطع السيطرة على يده فصفع ابنه على مؤخرة الرأس، ومع أن الصفعة كانت هينة إلا أن فائزاً زمجر مستكثراً مواصلة أبيه الاستهزاء به، فحرن غيظاً وامتنع عن الكلام يومين، بعدها فتح أسارير وجهه عندما وجد أباه يحضنه ويربت على كتفيه:

– جميعنا عبيد لله يا بني.

هذه الجملة وازنت بين شعوره بالنقص والاكتمال، مؤسساً في أعماقه قناعة أن الجميع عبيد ولم يعرف أن تلك الجملة جملة مخاتلة وخادعة إلا بعد سنوات عندما سمع زوجة طارش تلقي كلمة "عبد" كجمرة ملتهبة خرجت من بين ضلوعها:

– هل جننت يا رجل، تزوج ابنتك على عبد؟

خلال سنوات قليلة من الكدّ على خط الحجاز استطاع البيشي توفير مبلغ من المال واشترى بيتاً آيلاً للسقوط من أبي سليم وقام بترميمه، ففاضت مساحة اتّخذها حوشاً لتربية الأغنام والدواجن، وعن طيب خاطر تنازل عن ذلك الحوش لطارش وأسرته.

ربما تذكّر أن شراء منزله لم يكن ليتم لولا سخاء أبي سليم عندما علم أن المال المجموع لن يكفي لإغراء البائع بإتمام الصفقة، فتدخل باذلاً المال والجهد ليتم للبيشي ما أراد.

وتدخّل كـ"جاهة" لإتمام زواجه من مرزوقة، تلك الجارية التي شاغلته على مدار سنة أو تزيد، وكلما طلبها من سيدها وجد رفضاً قاطعاً، فأهمل كل شيء وتتبع خطى السيد علّه يعطف عليه ويزوّجه جاريته، وعندما ملّ من تراخي قناعة صدقة صائم الدهر وقف في وجهه مباشرة.

– سأشكوك للملك فيصل...

في تلك الشكوى وجد في أبي سليم العون والمؤازرة وانتهت تلك المعاملة بتدخّل الدولة لعتق كثيرٍ من الأرقاء ومنحهم صكوك حرياتهم وأغلق ملف العبودية بسبب مرزوقة.

في مساءٍ ملبّدٍ لا يظهر منه إلا بروق خاطفة ودويّ رعدٍ قاصف شهقت مرزوقة وهي تحمل صك حريتها

عالمةً أن لا بيت يؤويها في تلك الليلة الماطرة. ومع انتصاف الوقت كان أبو سليم الجمل يرحب بها في منزله، وفي الليلة التالية زُفّت لبيت البيشي، وكانت أول جملة تفوّهت بها:

– بيت سيدي أجمل ورائحته أطيب!

هام البيشي بزوجته فنقل عبوديته من ملكية أسياده إلى ملكية مرزوقة.

ولم مرزوقة تكن تعرف من أمور العلاقات والتجاذب شيئاً، فهي قريبة من قيد العبودية لذلك لم تفقه أن يكون البيشي عبداً لها.

كل شيء يمسك بناصيتك فهو قيدك، ويبدو أن البيشي استعاد عبوديته بأسرع مما كان يظن.

ظل البيشي حاملاً لجاره النبيل كلمات الشكر والاعتراف بالفضل. تشارك مع زوجته في جهل كيف ابتعدا عن قيد العبودية، ولم يكن لديهما إدراك بما طفح على سطح السياسة، ولو كان أحدهما قريباً من الدنيا وما يموج بها لعرف أن أبا سليم الجمل كان ممن أيدوا تحرير العبيد، فناصريته جعلته يقف مع مصر ضد بلاده. وقد صفّق بحبور عندما سمع خطاب جمال عبد الناصر عن العبودية، وخرج متظاهراً منددا أن زمن العبودية قد انتهى. هذا الفعل انقاد إليه وهو يعلم أن نتائجه ستخفي عن بصره رؤية الشمس في ما تبقّى له من عمر. كان محظوظاً للغاية، فمن قبض عليه ينتمي إلى

قبيلته، فأخلى سبيله قبل أن يتم تحويله إلى ضابط المركز.

بقي في ذهن البيشي أن جاره أسدى إليه معروفاً وأن عليه مواصلة بذر المعروف في أماكن أخرى.

لم يكن البيشي رجلاً عاطفياً وما بذله من ودّ وحسن صنيع مع طارش وأسرته كان منساقاً إليه من غير معرفة سبب واضح يدفعه لإنجاز كل ما وعد به. حتى تلك الذكرى البعيدة مع يوسف الجمل لم تكن محفّزاً حقيقياً لما يفعل.

منذ انطلاقه في خط الحجاز أصبحت الدنيا لديه غربة، ترحال كل شيء، ليس هناك ثبات لأي شيء، الثبات طرفة نتبادلها كي نجدد نشاطنا لاستكمال الترحال.

هو الذي لم يؤسّس لعلاقةٍ ودية بجيرانه حيث يقضي جلّ أيام السنة مسافراً على خط الحجاز، وكان يبني علاقة رخوة مع الغرباء الذين تحفل بهم مواقف السيارات القادمة والمغادرة أو استراحات الخطوط البعيدة. كان يؤمن أن إغاثة الملهوف تتجسّد في الأماكن المقطوعة، هناك كان يبذل صنيعه ولا ينتظر جزاءً. كثرٌ هم الناس، ليس فيهم باقٍ، كلهم ميمّمين وجهتهم الى رحلة لا يعرفون متى يصلون. لقاءات لا حصر لها جمعته بخَلقٍ مختلفين، كان ذلك في رحلةٍ ما قيل فيها الكثير ولم يبقَ منها سوى خيط من ذكرى باهتة. فالجميع لم يمسك بشيء لأنهم يتخلّون عن

الذكريات البالية الميتة، مع أنهم يحملون ذاكرة الترحال.

الحياة رحلة لا تنتهي!

داهمته رغبة الرحيل إلى آخر نقطة في الأرض علّه يجد الحبل السرّي لأبي البشر، ويسأله: "كيف طاب لقلبك ترك أبنائك يسيرون في رحلة طويلة ليثبتوا زمن الفقد وينشغلوا بتحريك عجلة الترحال".

رحلات كثيرة كانت فيها رفقة رائعة، يتقابلون وينفصلون، هي نقاط الحياة والموت، لم يبقَ منها إلا روعة الحدث الذي عشناه أكان ممتعاً أو شاحباً حزيناً.

وهذه الرحلة انتهت بضيوف لم يكن يتوقع البيشي أنهم سيقاسمونه بيته وأن تكون قطوف رحماً لماء نسبه الذي لم يفاخر به أبداً.

قبل أن تتحجب قطوف كانت العيون تترقّب فورة جسدها، وفتنة ملاحة وجهها تُمكّن الباحث عن زوجة من التريث قليلاً علّها تكون حليلةً له.

ومن المنتظرين الكثر كان سليم يوسف الجمل في مقدمتهم – وإن استعجل بالاقتران بابنة عمه – ومع ذلك ظلت قطوف أمنيةً في الخيال.

قطوف جنّةً تسير على الأرض والكل يحلم بوطء ترابها.

كانت أم قطوف تعي فتنة ابنتيها وتعي أن الشارع حافلٌ بالسفلة واللاهثين لإشباع أوطارهم حتى لو كان ذلك على طلاء جدار، ولم تكن تعرف كيف تحمي ابنتيها من غيلان الشارع، فليس لديها ابنٌ ذكر يحمي شرف أختيه فتبادر إلى ذهنها فائز، تعرف أنه جثة بلا عقل إلا أن قامته المديدة سوف تظلل ابنتيها وتبعد عنهما آكلة الجيف من الطيور.

تفطّرت أفكارها أن تلزم فائز بمهمة الحارس الأمين. كانت تحتجب عنه وتتعامل معه بحياد مطلق إن جاء أو ذهب تنفيذاً لوصايا أبيه مع الجيران الجدد. كانت هيأته مرعبة لمن يريد اختبار قدرته في العراك. لفائز يدان عقيمتان نفرت في الفضاء متخليةً عن كتفيهما حتى إن الناظر يجزم أن صاحبها لا يعرف أين يضعهما أثناء العراك، فقرّرت زوجة طارش أن تضع بين تلك اليدين

المنزوعة النسب فخاً يذود عن ابنتيها مهاجمة الثعالب والذئاب ومغبّة الشارع.

في أحد مشاوريه لتلبية طلباتهم – على غير العادة – ندهت عليه لتحدّثه في أمرٍ ما، فانساق إلى داخل البيت مطأطأ الرأس معلناً عن قدومه، كان دائم النظر إلى أسفل قدمه حينما يتحدث إلى نساء الحي. زاغت عيناه لتلبية الأمر فجفل لرؤية وجهها السافر، ولكي لا تبتعد به الظنون خاطبته بحزم:

– فائز، أنت تعلم أن قطوف وبسمة ليس لهما أخ وأنا وعمك طارش نُعدّك ابننا، فوصيتي لك أن لا تترك أختيك في الشارع وحدهما.

كان متصلّباً كضابطٍ ينتظر تعليق النوط الخاص به قبل أن يعلن عن فرحته، فانحنى على الفور يقبّل يد أم قطوف ويعدها أن لا تغيب أختاه عن بصره.

– ستجدينني طوع أمرك يا خالة.

منذ ذلك اليوم غدا فائز حارساً خاصاً لقطوف وبسمة يلازمهما في كل خطواتهما مظهراً عدائية لكل من يحدثهما أو ينظر إليهما.

قطوف تحب الاستعراض ومماحكة قريناتها، وقد اكتسبت عدائيةً من بعض صداقاتها، كلما اتسعت لهن فرص اللعب أمام شباب الحارة، فكانت تفضّل إظهار إتقانها لأي لعبة مع إحراج الخصوم من صويحباتها، وكانت هي البنت الوحيدة التي إذا اتسخ فستانها تركض الى البيت وتستبدله بفستان أكثر روعة، لذلك كانت تغيّر ملابسها مرتين أو ثلاثاً في أوقات اللعب.

قالت عنها هدى ناصر:

– قطوف ليس لها من الجمال إلا تغيير فساتينها.

في كل يوم حادثة تحدث وكلام يُقال، وقطوف عازفة عن الرد ولا تلقي بالاً لكل الألسن التي تحوك الأقاويل عنها، وبمصاحبة قطوف وجد فائز لنفسه اعتباراً، فقبل مهمة الحراسة هذه إذ لم يكن ليلتفت إليه أحد أو يرحّب بمقدمه شارع أو ينتظره دكان أو تتوقف الألعاب انتظاراً لمقدمه.

الجمال يوجد للضائعين مكاناً بجواره. هذه هي الحياة، تحفل بكل الأضداد وكل قيمة تمنح ضدها شيئاً من جمالها أو رداءتها.

اطمأن طارش لمصاحبة فائز لابنتيه، فانهمك في مشروع صغير لا يعود منه إلا مع الغروب، ومع مقدمه يكون فائز قد قفل عائداً من ملاعب الصبايا، فيرحّب به طارش ويوصيه بكلمات تشعره أنه البطل المغوار:

– هما حياضك فلا يصل إليهما أي دنيء.

اكتسب لقباً سيئاً من المداومة على ملاعب الصبايا، ومع هذا لم يقلع عن ارتيادها، وبسبب قطوف كانت الصبايا يحتقرن تواجده معها، أوشك أن يثبت لأبيه أن عقله ضئيل للغاية عندما أراد الفتك بنوال قهوجي التي عيرته بقطوف:

– هل شراك أبوها عبداً لها؟

سنوات أمضاها فائز ظلاً لقطوف، ومع السنوات شعر أنه الأحق بها دون سائر الناس.

كسب سليم يوسف عداوته من وقت مبكر حين لم يكن يعير وجوده أي اهتمام، وما أثار حفيظته شعوره بالغيرة القاتلة من قطوف وتقبلها لأي تصرف يُحدِثه سليم معها. كانت تقف في صف فائز أمام كل شباب الحارة باستثناء سليم، فقد ظلت مداعبته لها في غدواتها وروحاتها متعةً تستقبلها بطيب خاطر، وكان ذلك يثير غضب فائز، ولم يكن ليدرك أن للأنثى شهوةَ تمنعٍ ودلال، شهوةً تنمو منذ الطفولة كالشجرة السامقة التي تحني أغصانها لمن يروي جذورها.

ولكي تظهر أنسها بمغازلة سليم كانت تحرص قبل خروجها من البيت على جدل ضفيرتين كثيفتين ثقيلتين يفضح ليلهما طوقٌ أبيض تضعه في مقدمة الرأس، وتسدل غرّتها لتغطية غمضة عينيها كلّما تلقّت جديلتاها شدةً من يد سليم.

لم تكن تحبه إلا أن ثمة شيئاً ما يجذبها إليه، تلمح ذلك الشيء يتوسط جبينه وإذا شعَ شغبه استقرّ بين حاجبيه.

سليم لم يكن المنجذب الولهان، فهو يرى أنها صغيرة على أحلامه، كان يجد متعةً في النظر إليها، وأغراه جمال ضحكتها وأن شغبه معها استأثر باهتمامها، فتمنحه ابتساماتها التي تفيض عذوبةً وتغري المرء أن ينتظرها ما تبقّى من عمره.

سليم لم يكن على استعداد لأن ينتظر، كان عجلاً فلديه حمولة فائضة رغب في إنزالها سريعاً، وعندما وجد أن ابنة عمه على استعداد سارع إليها وألقى بكل حمولته على ظهرها.

استعجال سليم جاء بعد إجراء حسبة أبانت السنين التي لا بدّ من انتظارها.

كان يكبرها بخمسة عشر سنة أو تزيد بينما هي لا تزال معلقةً ما بين التاسعة والعاشرة، لكن حسبته لم تكن صائبة، فبعد خمس سنوات علقت قطوف بين أحضان فائز.

– أوه، كان زمناً قصيراً على ردم تلك الوردة.

"بين الحلم والواقع حاجز السنوات ومن جدّ في عبورها أمسك بحلمه."

هذه الجملة غائبة عن ذهنية فائز، غائبة كصياغة إلا أنها حاضرة كحلم سعى إليه منذ أن تقلّد ذلك القضيب الحديدي.

لم يكن يظن أنه محظوظ بتلك الصورة التي استقبله بها مدير السجن، حمّل ذلك الفأل لدعوة أمه التي ظلت لخمس ليالٍ تقوم الليل خاشعةً مبتهلةً، وودّعته بدعوات أن يُحنّن الله فيه خلقه.

سمع أخباراً عن فتح باب الالتحاق بإدارة السجون ومن لديه رغبة ويجد في نفسه الكفاءة التقدّم للالتحاق بإدارة السجون. كان جسده الفارع ميزةً أدخلته في عملية الانتقاء من بين ستة عشر شاباً سُمح لهم بعبور بوابة المدير العام والخضوع لاختبار المقابلة الشخصية.

استسلم لكل ما يقال له، وحرص على عدم المغامرة بردٍّ قد يحول بينه وبين حلمٍ دفين ترسّخ في عقله ووجدانه. كانت هيأته وضخامة جسده تشيران إلى أن حظه وافر لتسكينه في إحدى وظائف الحراسة.

مشيته العملاقة الضارية نُصغّرها لكي نشبّهها بنقلات البطة حين تدفع جسمها إلى الأمام بينما قدماها لا تزالان في الخلف. حظي باهتمام اللجنة المسند إليها اختيار الجنود الجدد، وقد ساعدهم بانقياده لتنفيذ كل

توجيه يسمع به. كانت المقابلة الشخصية هي الأسوأ، فلم يكن قادراً على فهم السؤال لكي يجيب الإجابة المفرضية، عجزت مقدرة فهمه عن أن ترسو على أي شاطئ أمان، ومع ذلك تمّ احتسابه ضمن المقبولين.

تلقّى أمراً اعتبره نازعاً لحلمه الذي استقرّ بين جوانحه، ورأى أن الأمر قد تمادى بصفاقة لسلبه كل أمانيه التي تمكّنه من أن يكون مهاباً، فنظر إلى أفراد اللجنة متأنياً ومحاولاً أن يتريثوا في إصدار قرارهم، ومع تصميمهم أخذ على نفسه عهداً ألاّ يشاركهم إلقاء حلمه في برميل النفايات، فقرر ألاّ ينقاد في آخر خطوة، ولتذهب الوظيفة إلى قارعة الطريق.

إعلانه عدم الموافقة على الوظيفة التي تمّ ترشيحه لها كان مثار استغراب مدير اللجنة، فاستدعاه مستوضحاً أسباب رفضه، وكانت أمنية فائز جديرة بأن تفتح لها عيون كل أفراد اللجنة:

– أريد أن أكون سيّافاً.

التفاعل الذي وجده من مدير السجن جعله يطمئن إلى أن حلمه لم يغادر موقعه في الغيب، فالتزم الانقياد مرةً أخرى وأخذ يصغي لكل ما يقال:

– وظيفة سيّاف ليست من مهامنا ولكن سوف أبذل جهدي لتذليل كل الصعوبات لكي تفوز بأمنيتك.

في اليوم التالي حضر إلى إمارة المنطقة واضعاً دعوات أمه في أذنه وبصره، وكلما خطا خطوةً استعاد الآيات التي أوصته أمه بترديدها.

كان مقرراً أن يختبر قوة جنانه وثبات أعصابه من قبل سياف المنطقة، إلاّ أن هذا الاختبار لا يكون معتبراً إلا في ساحة الإعدام، وكخطوة أولية أخضعه الممتحن لاختبار أي الأدوات سوف يستخدمها في عمله القادم، فوُضعت أمامه ثلاثة سيوف: سيف في غمده، وسيف أجرد، وسيف مثلوم.

ومع إعلان الاختيار سارع إلى حمل السيف الأجرد، كان هذا الاختيار مباركاً من قبل مساعد الإمارة.

خرج من بوابة الإمارة جذلاً معطياً رئتيه كفاً مهولاً من الهواء الفائض عن الحاجة.

القدر صياغة تراكمية وجاء فائز داخل المعادلة لتثبيت وظيفته كسياف يُنتظر منه أن يكون ماهراً.

كان منتظراً له حضور أول قصاص تدريباً فإذا به يحضر مأدبةً للرؤوس المتطايرة. فقد سبق أيام موعد تسلّمه وظيفته صدور أحكام قضائية بإعدام جهيمان ورفاقه، وكان من نصيب فائز جزّ ثلاثة رقاب وهو لا يزال في طور التجريب.

تسارعت الخطى نحو حلمه الكامن في أعماقه ولم يكن يعنيه سوى تحقيقه مهما وجد من عنت، ولم يكن يتوقع سهولة العبور لولا تعكير مزاجه بجمل قالتها زوجة طارش وهي تجادله وتذكّره بالفروقات المهولة... فروقات كثيرة لا يذكر منها إلا جملة كريهة على قلبه سمعها من زوجة طارش وهي تجادله:

– هل جننت يا رجل، تزوج ابنتك إلى عبد؟

– الوفاء ليس له لون.

أنهى طارش احتجاج زوجته كإغلاق تام يمنعها من فتح عبودية فائز، لتصمت عن جور ذلك القرار في ما تبقى لها من عمر.

في البرحة المواجهة لبيت البيشي تحلّق الرجال حول قدور كبيرة وغليظة استطاعت استيعاب عشرين خروفاً تكسرت عظامها ووُزّعت على عشرة قدور، وقد واصلت النار اشتعالها من الصباح الباكر فما إن وصلت الظهيرة حتى تصاعد فوران وأبخرة المرق المذاب من اللحم. كان فائز ينتظر وصول المعازيم بخفة مظهراً أناقةً متواضعة.

– لم أسعد بلبس البشت إلا الليلة.

العرق يتصبب من جبين محمد موسى فيزيح انحداره بمنشفة حائلة اللون وهو يرد على سخرية عباس حلواني:

– يا واد... "جات الحزينة تفرح ما لقيت لها مطرح".

كانت سخرية عباس لاذعة قالها بالقرب من محمد موسى الذي لم يشأ تعميمها واكتفى بالتذكير: "إياك أعني".

هذا الحوار الخاطف لم يستوعبه فائز فقد كانت أذناه مغلقتين "للتشطيب" فأغلق جميع المنافذ التي يمكن لها أن تسبّب ضيقاً لخاطره.

تواجد الجيران بتلك الكثافة أدهش البيشي حتى إن الكلمات تعثرت في حلقه ولم يستطع إطلاق جمل الشكر والتقدير المعهودة، فاستعاض عنها برفع اليد ووضعها على رأسه كامتنان لا توازيه كلمات.

كان محل دهشته أنه لم يقم بأيّ واجب مع أحد من الحضور، فقد كانت سفرياته المتواصلة تحول بينه وبين أداء الواجب مع جيرانه، ولم يكن العريس دمثاً أو صاحب مواجيب بل كانت عدائيته سبباً في إقلاع كثيرٍ من أنداده عن مصاحبته.

تنقّل البيشي بين المهنئين بقلبٍ مطعون، ولم يشأ إظهار الجرح العميق الذي تركته مرزوقة:

– هناك من يخبئ لنا الطعنة ومرزوقة أجادت الطعن.

في كل سكناته يتذكّرها، ويتذكّر أنها جاحدة كأسياده الذين تركوه في العراء، وعندما استبدل تلك العبودية بعبوديته لمرزوقة كانت أكثر قسوةً وإيذاءً.

– الحب مجزرة عليك أن تخرج منها سالم الأطراف.

ضحك بينه وبين نفسه من دموية جملته وعاهتها الظاهرة، فكل المحبين تُقطف أفئدتهم وليست أطرافهم.

– رحب بضيوفك يا أبا فائز...

أعاده صوت الحلواني إلى ضجيج المعازيم، وانشغال أبناء الحارة بترتيب كل شيء، وتخاطف الأعمال الواجب تأديتها مع توصية بعضهم بعضاً بإنجازها على خير وجه.

طارش كان يقف بعيداً، فبعد نقاش قصير فضّل أن يكون على هامش ليلة الزواج.

– هل دفع لك مهراً جيداً لتسارع بتزويج ابنتك؟

لم يشأ إحداث جذبٍ وشدّ بينه وبين مُحدّثه يوسف الجمل فنأى بنفسه بعيداً عن الهرج والمرج وافتعل الانشغال بالضيوف والترحيب بهم.

ظلّ واقفاً، حتى مشاعره ظلت واقفة معه. لم تكن سافرة في مجادلته، اكتفت بحمل لوحة عظيمة توضح له أنه بخس حقّ ابنته.

ليلة زواج نادرة، كان العريس هو الوحيد المبتهج فيها. لم يكن حوله أحد حتى إن خالته جمعة قصرت مدة حضورها وكانت كلمات التهنئة ثقيلة على صدرها، سرعان ما نطقت بها وغادرت الفرح على عجل بعد أن أسرّت لفائز أن أمه منعها زوجها من الحضور.

كانت خالته جمعة قد رأت العروس أثناء مغادرتها فاقتربت منها مستعيرةً جزءاً من حقدها القديم من غير أن تمسك به بعناية، فاقتربت من مسامع أم العروسة:

– هذا الفائز لا يعبر إلى أي فرحة إلاّ على جثة.

العروس ذاهلة تتبادل الإيماءات مع أمها وتكثر منها للتحفيز على التماسك وإظهار السرور وظلّت ممسكةً بابتسامة مشتتة، إلا أنها خارت في اللحظة التي وجب عليها التماسك فيها.

خرجت النساء يتحاكين عن جمال قطوف والحظ العاثر الذي أوقع جمالها بين أشداق فائز.

قبل موعد الزفّة بقليل حدثت جلبة وتجمّع فتيان الحي حول سليم يوسف مباركين ومهنئين:

– أصبحت رجلاً يا سليم...

نفر من هذه الجملة وهمّ بالالتحام مع قائلها لولا تدخل نفر من الفتيان مبطلين شرارة ذلك التحرش. كان سليم قادماً للتو من فرحةٍ بُشّر بها واكتسب كنيةً جديدة وفرق عن بقية أقرانه بأنه غدا أباً.

فرحته تلك قابلتها غصة حادة.

ومع تعالي دق الدفوف كانت نفسه تتوق لرؤية العروس أثناء انتقالها من بيتها إلى بيت العريس، ولكون المسافة لا تتعدى المائة متر فقد كانت كافية لأن يلمح جمال وفتنة قطوف يذويان بين يدي سيّاف أخرق.

لم يستطع مقاومة رغبته، فترك زوجته تفرح بوليدها وظلّ إلى الساعات المتأخرة منتظراً حلول وقت الزفّة.

لم يكن حاضراً الترتيبات الأولى للفرح فغاب عن لعبة العجل ولم يشارك في لعبة المزمار، فكان حضوره مناسباً لإسماع "السلك" محملاً معتوق غالي بأغنية تُطرب قلبه المشتعل. وبينما كانت الفرقة تستعد، طوّقه، البركاتي من الخلف متودداً:

– بالبركة، سمعت أن ولي العهد شرّف.

– الله يبارك فيك.

– ماذا أسميته؟

– فيصل.

– جعله الله فيصلاً بين الحق والباطل.

– إن شاء الله.

وارتفعت أنغام السمسية ليجنح صوت معتوق غالي في بحر الهيام مبحراً بصوته الجهوري النشاز تتابعه أصوات أعضاء الفرقة مرددةً ومستمتعة:

ليه بس كذا يا بحر النيل
إنته بتضحك وأنا دمعي يسيل...
أنا وحبيبي في جنينه

والورد خيم علينا...
وطلعت فوق الشجرايه
وقطفت خوخة وعنبايه...
وطلعت فوق شجر القرفه
وأخذت بوسه من الشفّه...

توالت الأغاني وانسياب لوعة العشاق تبحر قواربها نحو محبوباتهم بينما صوت معتوق يلوّن كل قلب بما يشتهي سماعه.

كانت أذنا سليم مرهفتي السمع تتابعان أي نغمة تصدر من جهة النساء علّه يصطاد اللحظة المناسبة لاختلاس النظر ورؤية قطوف.

ومع أول نقرة لدفوف الطقاقات تحرّك سليم لكي يكون في المكان المناسب لخطوة العروس وعريسها، وقف أمام منزل بيت فواز تماماً حتى إذا تمّ تغيير ممشى الزفّة فلن يتم تغيير بوابة بيت العريس.

هاله منظر جمال قطوف المغلّفة بالورود حتى إنها كانت هي الوردة الوحيدة الحيّة بنضارتها وفتنتها وجمالها. لم يكن سليم مكترثاً بعبور النساء المحيطات بالزفّة أو سماع ما يُردّد من قبل الدقاقات. كانت عيناه مسمّرةً على وجه قطوف الذي بدا واضحاً من خلال الطرحة (التل) وكان قفازاها الأبيضان الناصعان قد اسودّ أحدهما حينما تعلّق بذراع فائز.

كان سليم أكثر تبجّحاً حينما رفع صوته مردداً:

– وطلعت فوق شجر القرفة

وأخذت بوسه من الشفة...

من الشفة ياحبيبي.

تلك الوقفة تنبه لها العروسان فانبعثت ابتسامة قطوف وكراهية فائز.

لم يستطع سليم فعل شيء سوى مغامرة اعتراض الزفّة وبث إعجابه بصورة سيئة وأقفل عائداً إلى بيته وأسفُ تعجّله بالزواج هي الفكرة الطاغية على مخيّلته.

* * *

انتهت مراسم الزواج ولم يبقَ في البرحة سوى البيشي ونفر من الشباب يقومون بإكمال الأعمال الأخيرة. جلس البيشي مقتعداً كرسياً في آخر الصفوف وليس في باله سوى صورتين: خط الحجاز وصورة مرزوقة، وكلاهما طريق ممتد لا تُعرف له نقطة نهاية...

- سوف أنام الليلة في بيت سيدي صدقة.

هذا أول طلب تساهل معه. يذكر جيداً صلف سيدها، وقد جرّبه لشهور طويلة عندما كان يلاحقه طلباً ورغبةً في الاقتران بمرزوقة.

تأسّف على نفسه، واحتدم في فضّ سؤال استعصى عليه وتمنّى لو يجد له ردّاً:

- كيف تغيب مرزوقة عن زواج ابنها الوحيد؟

تناسل شباب الحارة من داخل البرحة بعد أن أنجزوا الأعمال الموكلة إليهم، وكانت يد البيشي في حالة رفع

وخفض محيياً وشاكراً أولئك الذين تفانوا في إظهار مراسم الزواج بالطريقة المثلى .

وجد نفسه وحيداً فتحرك صوب البيت معاتباً مرزوقة:

– كيف تغيبين عن زواج ابنك الوحيد؟

وضع نفسه في موقعها وكيف سيتعامل مع موقف كهذا .لم يستطع تدارك أي فكرة تمنعها من حضور زواج ابنها الوحيد.

في الأيام الأخيرة لم تعد تنبس بكلمة واحدة في مجيئه أو غيابه، فائز كان الجسر بينهما، ذلك الجسر غدا جسراً وعراً يزيد المرء عنتاً وإرهاقاً... كانت أعذار مرزوقة للذهاب إلى بيت سيدها تتزايد يوماً بعد يوم.

مع انتقال قطوف إلى بيت الزوجية رافقتها حسرة أمها وكذلك حسرة الشباب الذين طافوا حول نافذتها علّ رفيف أجنحتهم يحطّ بهم على أغصان قطوف، فاستعاضوا عن رحيلها إلى بيت الزوجية بالمكوث أمام نافذتها.

استحالت برحة البيشي إلى مهوى للأفئدة سواء للعاشقين أو للباحثين عن أخبار يتقوّلونها أو للباعة أو لمن يبحث لنفسه عن مكان في ذلك الصخب الشبابي.

لم تمضِ سوى أيام قلائل حتى تحوّل بيت فائز إلى محطة لعبور العيون أو هبوطها، فاقترانه بفتاة فاتنة جعله مادةً للحسد والحقد معاً. الغريب أن فائزاً كان على دراية بما يُحاك ضده من دسائس وضغينة لاقترانه بجميلة جميلات الحي، هذه المعرفة جعلته يعيش في حالة قلقٍ دائم.

كان المجتمعون حول منزل فائز يتواصون:

– لا تجعل زوجها يلمحك.

كل من فاته الاقتران بقطوف جاء للنظر إليها ومعرفة ماذا فعل بها القدر، أو ماذا فعلت عيناها عندما مرّت بليلٍ مظلم.

في ليلة زفافهما أشيع أن سليم عشيقها جاء لإبطال زفافها وأخذها قبل أن تدخل إلى "الليل" (كان أحد ألقاب فائز "الليل")، وتمّ ردم تلك الشائعة تحرّزاً من إثم

كبير، لكن انبعاث الشائعات له منافذ عديدة، فادّعى نخبةُ شباب الحارة أنهم على علاقة بالزوجة الفاتنة، وبسبب هذه الأقاويل تراهن كلٌّ منهم على إثبات صدق ادّعائه.

تعرّض سليم للزفّة كان مدعاةً لتثبيت اسمه كعشيق حقيقي دون الالتفات إلى ادّعاءات الآخرين، وأكّد على ذلك قول سامي الرشيدي:

– العشق حارا! انظروا إلى سليم؛ ترك فرحته بأول مولود سيرفع اسمه وجاء ليطمئن على حبيبة القلب.

أظهر فائز استغراباً حقيقياً لتجمّع الشباب أمام منزله مباشرةً، وكلما خرج إليهم تفرقوا أو تصنّعوا القيام بأمورٍ شتى.

كان الشباب يتزايدون أمام بيت فائز. هو من خلق حالة التجمّع والتزاحم تلك، فعشقه لقطوف احتضن غيرةً حارقة... غيرة لقيطة تعهّد بتربيتها من غير هدى، فكان يتتبّع خلجات زوجته أو سرحان خاطرها أو رجفة هدبها... من ليلة العرس ظنّ أن كل الرجال يتربّصون بها من خلال ثقوب النوافذ أو أسطح المنازل أو من خلال ما تقذفه يداها في برميل النفايات أو من خلال النساء اللاتي يجلسن معها أو يتحدثن إليها.

هذا هو الحال الذي وجد نفسه متورطاً فيه.

يُصاب بالسعار كلّما تذكر وقفة سليم وعينيه اللتين لم تنزلا من على وجه قطوف وترديده "وقطفت بوسة

من الشفة". لم يهنأ براحة البال منذ أول ليلة من زواجه. أدخل قطوف إلى بيته ومعها أدخل القلق إلى صدره.

دبيب الغيرة حوّله إلى مدمن مراقبة، فكان يقتعد الغرفة المطلّة على الشارع ويسمّر عينيه من خلال الشقوق كاشفاً تجمّع الشباب وهو في حيرة تحديد أيّ منهم على علاقة بقطوف، وفي كل يوم يكتشف أن شاباً يمنحه إشارات شوق أو غزل ويرسلها باتجاه النافذة التي تسمّر خلفها.

تلك الإشارات جعلته يدمن على مداومة المراقبة، ومع أي إشارة تصل باتجاه النافذة يغادر موقعه ليذيق قطوف اللكم والبصق ويشبع أذنيها بالكلمات النابية.

تمادى في جذب الشباب من خلال الإغراء ببثّ رسائل شوق أو المناديل المزخرفة أو حبّات اللبان أو قطع من البسكويت. كان يدفع بهذه الإغراءات من خلال شيش النافذة لكل من يشك أن له علاقة بزوجته. انتهى ذلك التمادي بحصول أربعة من الشباب على وثيقة حب، وأخرج كلٌّ منهم وثيقته أمام الجميع: رسالة؛ منديل مزخرف؛ شريط أغنية عاطفية؛ طوق لجمع شعرها الناعم... وادّعى كلٌّ منهم أحقيته بعشق قطوف. وعُقدت المراهنات بين الشباب الأربعة في إثبات أيّهم الحبيب الأثير لدى قطوف من خلال بيّنة واضحة لا لبس فيها.

دخل سليم اللعبة لإغاظة فائز ولتذكير قطوف بمشاغبته لها، وكذلك اعتداداً بوسامته، ولم يرَ غضاضةً

في الدخول للبرهنة على تميزه في قلبها، وكان أكثرهم جديةً في إثبات أنه المعشوق الأوحد لقطوف، وقد سلك طريقاً معوجاً بعقد صفقة مع إحدى بائعات الأقمشة ودفعها إلى ترغيب قطوف بشراء ملابس داخلية مكوّنة من كيلوت وسوتيان أحمرين على أن تسترجعهما منها بعد ثلاث ليال، وتدبير خطة تجعل فائز يطّلع على القطعتين المباعتين لقطوف أو يشاهدها ترتديهما أمامه؛ بهذه الشروط اتفق مع بائعة الأقمشة ووعدها بالمال الوفير إن نفّذت طلبه خلال فترة وجيزة.

كانت المراهنة أمام ثلّة من الشباب، وحدّدوا اليوم الرابع كآخر مهلة لإثبات مزاعم كل واحد من الشباب الأربعة... مرّ اليوم الأول من غير مفاجآت، وفي ذلك اليوم انشرح خاطر فائز وظلّ يضحك من كل واحد من المتراهنين وتدخّل في إحداث نشوة بين المتراهنين فمرّر رسالة إلى طارق هاشم الذي قدّم الرسالة إلى لجنة الحكام كإثبات لحب قطوف.

تابع فائز تلك المراهنات من خلف شقّ النافذة ويكاد فرط ضحكاته المتهكمة أن يصل إلى مسامعهم، ولم يكن يتوقّع تلقّي تلك الصدمة العنيفة التي زلزلت كيانه حين لمحت عيناه من شقوق النافذة الكيلوت الأحمر المعلّق بين أصابع سليم كبرهان على أنه كان معها ليلة البارحة وأعطته هذا الكيلوت كدليل إثبات.

جُنّ فائز.

لم يعد يعرف ما الذي يمكنه فعله، انهيار كامل لكل أعصابه المرتعدة. انسحب من خلف النافذة، صائحاً بقطوف أن تحضر، وقبل أن تستقيم قامتها أمامه أمسكها من شعرها وأشبعها ضرباً، منهالاً بعصاه على أيّ موقع تصل إليه من جسدها:

– أين الكيلوت الذي اشتريته لك منذ ثلاثة أيام؟

كانت تتلقّى الضرب والشتائم وعجزت عن تكرار القسم المغلّظ بأن البائعة جاءتها صبيحة الأمس مصرّةً على أنك أنت من أمرها باستبدال لون الكيلوت والسوتيان باللون الأسود.

خرج من وقته يبحث عن تلك المرأة في الأزقة وفي البيوت وعند موزّدي الأقمشة وعلى ألسنة الناس، ولم يعثر على البائعة التي ضاعت في زحمة الأيام وبقيت سمعة الكيلوت الأحمر تطارده.

غدت شقوق النافذة سمّاعته التي يستمع بها إلى ما يقال عن ذلك الكيلوت الأحمر.

كان كبار السن يلومونه ويتبادر سؤال ظلّ يؤرقه:

– لماذا لا يطلقها؟

أخذ أياماً يبحث عن بائعة الأقمشة وكلما عاد أمسك بعصا الخيزران، وشد جديلة قطوف ليبدأ العقاب اليومي. وعندما ينس من الالتقاء ببائعة الأقمشة قرر ذبح قطوف إن لم تخبره بالحقيقة.

وكانت هي تنفي الواقعة تماماً وتتلقف ثورة فائز مستحكمةً تغطي بذراعيها جذع رقبتها ورأسها فيما كانت ثورته قد بلغت حداً من الوحشية، وهي لا حول لها ولا قوة سوى الاستغاثة بعمها الذي تظاهر أنه خارج البيت بينما كان جسده محشوراً بين زاوية ضيقة من زوايا البيت التجأ إليها لكي لا يسمع أي استغاثة تصله. كانت أمنيته سحق هامة قطوف، فهي التي خذلته وخذلت اعتداده بالفضيلة والشرف، كان يتمنى لو أنها طلبت الطلاق لكان خيراً لهم جميعاً كما فعلت مرزوقة.

– المرأة تتوق لمن تحب ولن يفهم هذا الغبي أن يبتعد عن قلبها كابتعاد الإنسان عن أمنية العمى.

شعر بثقل يعتري ساقيه وتساءل هل هو إرهاق أم قاصمة الفجيعة. استند إلى جدار بيته الخلفي وانسلّ بخفة لا تتناسب مع شعوره بالوهن، ودسّ جسده في سيارته الشفروليه (التي حلّت محل البيجو)، فتراءت له ظلمة خط الحجاز، تلك الظلمة التي طالما ابتلعته في سنوات الضيق الأولى.

– ليتها طلبت الطلاق.

دار بين شوارع الحارة بثيابٍ متسخة وغير منسّقة، عابراً بجلسة سمر كان بعض شباب الحي يجتمعون على صوت أم كلثوم متحلقين حول مذياع أجهدهم تغيير مواقعه لكي يأتي صوته صافياً.

ألقى عليهم التحية: "سلام يا شباب" وابتعد عنهم وأغنية "لسه فاكر" تصله متقطعةً حين خطرت زوجته بباله عندما كانت تعتني بأموره الخاصة وتلومه على تقصيره في الاهتمام بهندامه وتضع يومياً في طريقه ثوباً ناصعاً وغمّةً وغياراتٍ داخلية وحذاء.

كان يلزم الصمت كلما ثارت في وجهه وذكّرته بالعناية بهيئته:

– أتريد أن يتقوّل الجيران بأني امرأة مهملة في حق زوجي؟

لم يكن يشعر بالارتياح حيال تلك المحاصرة اللصيقة، وعندما تخلت عن كل شيء وهجرته اكتشف أن الحياة ضيقة بما يكفي لأن يواصل فكرة الإقدام على الموت عن طيب خاطر.

كان ماضياً نحو الفكرة مع يقين يترسّخ في داخله ويشتدّ سعيره:

– بعد رحيلها لا حياة تُنتظر.

يذكر كيف تجرأت على تهشيم السنوات التي كانت بينهما، شدّ صلبه عندما وقفت أمامه غير راغبة في مداراة طلبها، أطلقت عيارها الناري غير آبهةٍ بانهيار سدّ:

– طلّقني.

غاصت الكلمة بين العظم والعصب، ونظر إلى الأيام التي مضت. فقه أن دعوة زوجته ما هي إلا استجارة، تستجير بها من التراخي الجسدي الذي ران على علاقتهما، ولم تكن مماحكتها الدائمة إلا سلّماً تصعد به إلى السطح لكي تشمّ هواءً نقياً بعيداً عن هواءٍ فاسدٍ تختّر في قصبتها الهوائية.

– طلّقني.

تتمدد هذه الكلمة ولا تجد لاتساعها من مكان سوى الانطلاق في خط الحجاز بالسرعة القصوى.

"الذكرى محيط يعيد إغراقنا في مياهه كلما جفّت ثيابنا من البلل."

قصة "الكيلوت الأحمر" أعادت إليه رغبة ترتيب مشاعره، مستذكراً ما فعلته مرزوقة... لم يكن يتوقّع أن ماضيها هو سجنه القادم، ومع مداومة طلب الطلاق كانت ثمة أحداث غائبة تصوغ معادلتها.

رضخ لمطالباتها فمنحها لقب مطلّقة، وبعد خمسة شهور كرّت حبّات السبحة في تساقطها لتذكّره بأيامٍ سقطت من الذاكرة.

صدقة صائم الدهر، هذا السيد الذي كان ضنيناً بعتق جاريته مرزوقة استعاد ما كان ضنيناً به، فلم تكن جاريته إلاّ أماً لابن لم يشأ السيد الاعتراف به، ومع تزاحم الأيام وتخلّي الالتزامات بعضها عن بعض كان السيد مستعداً لأن تكون جارية الأمس زوجة اليوم.

"السادة يقتلون أحلام عبيدهم من غير تنبّهٍ البتة."

وقد اختارت مرزوقة أن تكون في موقع السيدة لاقترانها بسيد.

تهاوت عزيمته وتعلّق برغبة وحيدة، أن يمضي هائماً ليس له من أحد. بقيت له أمنية وحيدة هي تخليص قطوف من الفخ الذي أوقعها فيه. تمتم متحسّراً ضارباً بيده مقود السيارة: "هذا الثور لا يفهم! قلت له مراراً: إذا رفضتك المرأة فلا تقيل تحت ظلها".

قلب أشرطة سيارته وارتضت نفسه بأغنية "عش أنت" لفريد الأطرش، وعرج مع المقدمة الموسيقية يلاعب أوتار وجعه الخاص بفيض من الوجد، ورويداً رويداً التهمته ظلمة طريق الحجاز فأوغل فيها من غير اكتراث.

في احتفالية بعيد الفطر أصاب المجتمعين رعدةٌ لوثةِ لعبة المزمار فتسابق بعضهم نزولاً إلى حلبة الرقص والدوران حول النار المشتعلة خاطفين حفنةً من التراب للقذف بها على ألسنة اللهب المتصاعدة. وفيما كان صوت المرد (النقرزان) يتعالى امتلأت حلبة الرقص وتقابل الخصوم بلمسات عصيهم والتقهقر إلى الخلف، فيما كانت كلمات "الجوش" عالقةً بغبار أقدام اللاعبين:

حليمة حليمة خيطي ثوبي المشقوق
جديد النقوش ولا لبسته يسليني...
ياوارد الما... أسقني شربيت
واللي سقاني... ما يخاف الله...
ياليحى يومه... ليحى يوم حيي
والله ما عوض... عن هوى بالي...

كان ترداد كلمات "الزومال" له قصدية أحدثها جلال أبو ليلى وهو يحفز المجتمعين على ترديدها والإشارة صوب سليم.

تبختر سليم وسط الحلبة وقد تفزق الخصوم من حوله تحاشياً لضربات عصاه العشوائية المستهدفة أولئك المشاهدين الذين ضيقوا مساحة اللعب، ومن الخلف اندفع فائز وسط الحلبة قاصداً سليم مباشرةً فالتحما في شجار أظهرت تقاسيم وجهيهما أن كل

واحد منهما يسعى لفناء الآخر... فتدخل العمدة رافعاً شومته بينهما:

- هل تريدون أن تشمت بنا بقية الحارات؟... تراجعوا.

تدخل المجتمعون لحجز كل واحد منهما في جهة من حلبة الرقص للتفريق بينهما جسدياً وكلامياً، فنفر فائز صائحاً:

- إيبيبي! أيها السافل، سأجزدك من لسانك كي لا تواصل كذبتك.

- أيها الغافل، ثبت للجميع صدق قولي.

- وسوف أثبت لهم أن رأسك لن يطيل مكوثه بين كتفيك.

كان السفلة من الحاضرين يتمنون أن يُثبت سليم صدق قوله مرةً أخرى.

دفع العمدة فائزاً لمغادرة حلبة المزمار، فيما كان الصفير وكلمات الاستهجان تتقافز من حناجر السفلة المحيطين بالمتشاجرين، مرديين جملاً موارية ودافعين المتخاصمين إلى معاودة الشجار. حزمُ العمدة قضى على مواصلة العراك، مفرقاً الجميع وداعياً لمواصلة اللعب.

خطف الهواءُ العابرُ رذاذَ غضبٍ تيبس على شدقي فواز وهو يتوعّد بقطف كل رأس تطال أهل بيته.

* * *

لم يستدرك فائز غيبة أبيه وقد مضت الأيام من غير أن يعود. ربما سكن في خاطر فائز أن متابعي طارش قد قضوا عليه في إحدى استراحات خط الحجاز. كان يبحث عن سبب يريح وخز الضمير كلما طرأت بباله سيرة أبيه.

الصفعات التي تلقّاها طوال حياته رغب في التخلص منها بأي حادثة تغيّب أبوه عن ممارستها، لا يريد أي سلطة تُحجم إرادته أو تحدّ من حريته:

"ذاب عقلي من كثرة صفعات أبي."

تعاطف مع أمه حينما طلبت الطلاق، يومها تمنى لو أن أباه يُطلّقه هو أيضاً.

لا يشعر بوحدته، كان يستعين على ألم واقعه بقلبين: قلب أمه وقلب ابنته هيام.

معرفة أن له أخاً – من أمه – يكبره لم تُسعده بل ضاعفت شعوره بالوحدة إذ جاء هذا الأخ لمقاسمته قلب أمه.

هيام هي التي دائماً تذكر جدها وترغب في رؤيته.

وقد أوجد حلاً لسؤالها حينما قبر جدها في ذاكرتها فلم تعد تذكره.

هيام تحب أباها كثيراً ولا تبحث عن أي شيء ينغّص عليه لحظات وجوده في البيت.

كانت تعاني من شغب جمال شاكر وفيصل سليم، ففي ذهابها وإيابها يقف جمال أمامها صائحاً:

– برازيليا أين المفر؟

فتحوم في موقعها لتجد أن فيصل سليم قد فتح لها منفذاً لتعبر منه لكنه لا يترك عادة شدّ شعور بنات الحارة.

عندما اشتكت هيام لأمها، رمقتها بنظرة ضاحكة وخاطرها يحدّثها: "يعيد شغب أبيه".

في بيت صفية المناديلي أقيمت حفلة "قهوة لوز" بمناسبة نجاح ابنها في الصف السادس ودعت الصديقات وزملاء ابنها لحضور مشاهدة فيلم "دعاء الكروان".

كان فيصل يُظهر شغباً بالوقوف أمام الكاشف السينمائي فيحجب لقطات الفيلم عن المشاهدين، ومع أن هذا الشغب يثير حنق من جاء للمشاهدة إلا أن ضحكة فيصل الآسرة ووسامته الطاغية جعلتا السيدات يتغاضين عما يفعل. مضت ليلة فرحة صفية – بابنها – مبهجة...

كان فيصل لا يزال يعربد مشاغباً بقية أقرانه ومتحزّباً مع جمال شاكر في اصطياد كميات الحلوى الموزّعة، وأثناء تخفّيه غاص بين تجمّعات الزائرات، وقبل انفضاح أمره التفتت قطوف سائلةً:

– ابن من هذا؟

– ابن سليم الجمل.

وضعت يدها على رأسه وجذبت خصلةً من شعرات رأسه وهي تتضاحك مع نفسها:

– هذا جزاء الشدّ الدائم لضفيرتي.

في اليوم التالي لشذها شعر فيصل، وقفت قطوف خلف الباب متقصدةً تماماً حتى إذا مرّ فيصل نادته. كان يقف أمامها متلجلجاً والكلمات تتأرجح في فمه:

– لم أؤذها قط.

– هي تقول أنت وجمال من يؤذيها.

– أعدك ألاّ أؤذيها مطلقاً.

فيصل سليم وجمال شاكر أقلقا الحارة بشغبهما، ففي كل يوم لهما حادثة أو حوادث، يكفي أن فيصل شجّ رأس فائز في إحدى تصويباته للنيل من لمبة بيت البكري. كان الصبية مجتمعين وتراهنوا أيّهم يكسر أكبر عدد من مصابيح بيوت الحارة، فكانوا يسيرون في مجموعات ويطلقون تصويباتهم. فيصل اختار حجراً ضخماً لكي يقضي على آمال رفاقه من أن يسبقه أحد في تهشيم لمبة بيت صالح البكري، ومع العجلة والتصويب الطائش كانت رأس فائز هدفاً سيئاً لرميته، وما إن تدفق الدم من ذلك الرأس الحاسر حتى تفرقوا كلٌّ إلى جهة، ومع تفرقهم ضاع دم فائز ولو علم بمن شجّ هامته لربما قطع يديه.

تبزع أحد الصبية بالوشاية بأن فيصل هو من ألقى الحجر على رأس فائز. كانت هذه الوشاية عيداً في أذن فائز وأراد التشميت بسليم وابنه وأقسم على سجنهما معاً.

وقف سليم ممسكاً بيد ابنه أمام ضابط القسم:

– بلغ ابنك السن القانونية؟

– لا يزال في الخامسة عشرة.

صاح فائز:

– شرعاً قد بلغ.

أسكته المحقق واتجه بصره إلى سليم ذي الشخصية المتزنة والأقوال الصائبة.

– سيدي المحقق، لو أثبت هذا (تعمد وضع اسم الإشارة من غير ذكر اسم فائز) أن ابني هو من شجه فسوف أقطع يد ولدي أو لكم الخيار في معاقبته.

كان سليم يتحدث برباطة جأش وحجته عجز فائز عن أن يأتي بشاهد واحد بأن فيصل هو من صوّب إليه ذلك الحجر الدامي.

في كل صباح ينهض فائز متحسّساً صدره:

– أما زال كرهه لسليم يانعاً؟

للكره بوصلة عمياء تقود صاحبها إلى خوض المياه الموحلة ظناً منه أن اجتيازها سيوصله إلى ماءٍ عذاب، وكل رحلات الكراهية تقف نهايتها عند قبر مفتوح.

نار الضغينة لم تخمد في قلبه، ففي كل زمن ثمة حادثة تُجدّد اشتعال جمراتها على سليم. فلم يعد مبقياً على بهجة حياته إلاّ حلم ممتد أن يجعل سليم يتمنى الموت فلا يجده.

هذه الضغينة حملها مذ كانت قطوف تجزع كلّما منعها من الحديث إلى سليم أو نهرها من تقبّل الشغب اليومي الذي كان يمارسه بجذب جديلتها كلما رآها.

منذ ذلك الشغب المبكر أيقن أن سليماً قد خطف قلبها الطفولي واستمر جريان حبه في كل أوردتها.

كانت شديدة المرح، ويبدو أنها أنهت مخزونها من السعادة قبل أن يغطيها فائز بلحاف لا فكاك منه.

كل الأيام الماضية لم يتسنّ له إذلال عنجهية سليم سواء بالاعتداد بنسبه أو جماله أو بسداد رأيه أو بقبيلته، ففي هذا المضمار سرعان ما تتواضع قدرات فائز وينسحب من المقارنة حتى لو جاءت عبر مخيلته.

انتظر أي فرصة لتعكير حياة سليم، وكلما تباطأت أو نأت يذهب إلى عمله وليس أمام عينيه إلا رقبة سليم.

أكثر من مرة كادت عملية القصاص تتحول إلى فعل قتل بسبب خذلان أعصابه، فكأن يأتي بأفعال منكرة في ساحة الإعدام.

منذ فترة تمّ تسجيل ملاحظات على عملية القصاص. فما إن يتم نقل المقصوص إلى "الشرشورة" حتى تخضع الجثة لفحص الطبيب الشرعي. كانت الملاحظات تتواصل كإدانة على ما يحدث في الميدان.

الملاحظات المسجلة على أداء فائز:

* هذا المقصوص اجتزّ السيف كتفيه.

* هذا المقصوص هشّم السيف قحف جمجمته.

* هذا المقصوص ضُرب بأكثر من ضربة قبل أن تسقط رأسه.

* هذا المقصوص تلقّى ضربةً على حنجرته – من الأعلى – بينما لم يصب السيف جذع رقبته.

* هذا المقصوص نقر بطنه قبل القصاص.

* هذا المقصوص مُثّل به بعد القصاص.

* هذا المقصوص قُطعت رجله اليمنى.

وفي كل مرة يتلقّى فائز ملاحظة عن أدائه، ومع كثرة الملاحظات لم يستطع فائز الفصل بين رقبة سليم ورقبة الشخص المقصوص.

في ساحة الإعدام يأتي اللون الأحمر قاسماً مشتركاً ما بين الدم المسكوب وكيلوت قطوف... فيتهيج فائز مع جريان الدم فيتدخل رجال الشرطة للإمساك بيده.

وكلما أيقن أنّ خصمه لا يزال حيّاً أعياه استياؤه وتمنّى أن يريحه الموت من تلك الضغينة الناخرة لأعصابه وحياته.

– عليك أن تقدم استقالتك.

تلك الجملة قالها مسؤول الإمارة من غير مواربة أو مداراة بل كانت لهجته أقرب إلى التوبيخ ولم يمهل ارتخاء عضلات وجه فائز فزاد عليه:

– أنت لم تعد تنفّذ أمر الله في الجناة بل تنفّذ وساوس الشيطان الذي في رأسك.

ارتعب من هذه الجملة وسقى ظنونه بمياه بحرٍ جرى فيه سؤاله المرعب: هل عرفت الإمارة بقصة زوجتي والكيلوت؟

ولم يعد إليه رشده إلا بعد أن تلقّى إجابةً عن سؤاله:

– أي شيطان تقصد يا سيدي؟

– لا أعرف تحديداً إلا أن كل مهامك الأخيرة طرأ عليها تغيّر جذري.

– ...

– القصاص تنفيذ حكم وليس تعذيباً أو شهوةً في الانتقام.

أصيب بصعقة من عبارة "شهوة في الانتقام":

– هذا الكلب يعلم بما في ضميري لكن كيف وصل إليه خبر زوجتي؟

مانع كثيراً من تسليم سيفه، هذا السيف الذي حلم به منذ دخوله سنّ الرجولة حين كان يتمنطق بقضيبٍ

معدني على طول طريق الحجاز... هناك اكتشف أن لديه قلباً يخفق ولم يعد يدرك أن قلبه استبدل خفقانه بنبض يكرر كره سليم في كل لحظة من لحظاته.

الأبناء

قصد الجيران منزل جمال شاكر لعيادته في مرضه المفاجئ الذي أقعده. فجأةً ومن غير سابق إنذار هجم عليه هجمةً شرسة بانت شراستها بإعلانه أن قدميه باتتا غير قادرتين على حمله، واستعان بصديقه فيصل ليوصله إلى البيت. كان في استقبالهما صراخ والدة جمال التي أثارت أسئلةً متلاحقة وجزعة:

– ما الذي أصاب جمال؟

– لا أعرف.

تحرك فيصل لاستدعاء بقية رفاقهما، وقبل أن ينتقل من بيت جمال تذكّر أن أصدقاءهما منخرطون في منافذ ترفيه مختلفة لن يصل إليهم في وقت محدد، وفضّل أن يخبرهم عند اجتماعهم أمام منزل فائز البيشي، والحقيقة أنه كان يفكّر في جمعهم جميعاً داخل غرفة جمال والمشاركة في السخرية منه، فأعدّ الكلمات والحركات ليرويها على مسامعهم.

قبل أن يهاجم الفيروس خلايا مخ جمال بلحظات كانا برفقة بعضهما بعضاً ينتظران حلول المساء لتمكين فيصل من مزاولة مغامراته الليلة، إلا أن العجز المداهم لم يترك لهما ضحكة آخر الليل.

بدأ جمال بالتثاؤب وارتخت عضلات يديه مع ثقل شديد في النطق ورغبة ملحة في الصمت من غير إدراك ماهية الصمت ذاته مع اتساع مهول في عدم التركيز.

فضاء شاسع في اللاوجود أخذ يجاهد نفسه لإخراج كلمة "أسعفني"! وكانت تلك الكلمة باعثةً على مواصلة الضحك، إذ كانا في حديث عن آخر المقالب التي قام بها جمال وانطلت على أبيه بسهولة. استشعر فيصل خطورة الموقف عندما استلقى جمال على بطنه وعندما نهره وحاول ثنيه صائحاً:

– أنت الذي تُضحك ولا تضحك.

كان ينظر إلى الانهيار الشامل الذي أصاب صديقه، بدأ بخذلان الأطراف وتشنّج عضلات الوجه سبقه ارتجاج وصك الأسنان ثم توالت الانهيارات، وانتقل جسده من الرخاوة إلى التخشب، وعجز فيصل عن حمله إذ تحوّل إلى قطعة من حديد فاستعان بأحد المارة لحمله وإيصاله إلى البيت.

كان مرض جمال سريع الانتقال يقفز من حالة إلى حالة أسوأ، ولم يكن يدور في خلد فيصل أن يجد نفسه معلّقاً بين الدهشة والفجيعة: دهشة أن يكون بمفرده وفجيعة فقد صديقه الأثير، فهو لا يثق بأحد كما يثق بجمال... يكفيهما أن كلاً منهما بئرٌ لتجميع أسرارهما والاتفاق على عدم تسريبها، فكانا مياهاً من الأسرار التي لا تُذاع ولا توزّع.

في شغبهما المتواصل كان الإيذاء لكل مرشح يتم اختياره من خلال أفعاله أو تصرفاته حتى يغدو فاكهتهم الأثيرة، وتتعدد وسائلهما وفق الشخصية التي رماها حظها العاثر في طريقهما، وغالباً لا يتركان

فريستهما إلا بعد نضوب آخر ضحكة تمددت في أوردتهما. ضحاياهما طافت على كل أهالي الحي، ومن لم يصله شغبهما يكون مستتراً بشفاعة شخصية قد أخذت لهما العهد من فيصل وجمال بأن لا يؤذياه.

كانت شخصية جمال أقرب إلى الاعتدال وأكثر لوماً للنفس، بينما كان يؤخّر لومه لفيصل ريثما يجد عقاباً يخفّف من انطلاقهما.

مذ عرف نفسه كان جمال حارسه الأمين على كل أسراره. فمع انتصاف الليل يتسلل فيصل إلى بيت فائز ويظل هناك إلى ما قبل ارتفاع الأذان الأول لصلاة الفجر فيخرج ليجد صديقه جمال رابضاً في انتظاره ككلب حراسة مهمته النباح لو كان هناك من يحوم حول الدار، وفي كل مرة يتماسكان وبينهما ضحكة لا تنتهي:

– يبدو أنها أشبعتك الليلة بما تحب.

كان السؤال المكرّر والقسم المكرّر بأنه لم يفعل شيئاً يندم عليه.

وفي إحدى مرات ضحكهما انفرطت جملة من جمال:

– يقلل من جمالها لون بشرتها. أوه، لو كانت جميلة كأمها.

لم يتوقع جمال ردّ فعل صاحبه واحتاج أسبوعين كي يمحو تلك الجملة، ومنذ ذلك الحين كان الحديث يسري بإسدال الحجب عليها.

{كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ * أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ} (القيامة: ٢٦-٣٥)

توافد الأصدقاء البعيدون الذين لم يأخذوا خبر المرض على محمل الجد، وعندما صدّقوا أن عارضاً غامضاً أصاب صديقهم وقفوا على بعد ولم يتمكنوا من دخول تلك الغرفة البائسة التي يرقد فيها جمال بعدما خشرت بأعداد الزائرين وتمّ إفراغها مرةً أخرى لكي لا يُنهك المريض من تزاحمهم. وإن كان هذا الخبر يحمل وجهين من كذب وصدق، والجانب الصادق أن المريض عليه تجنّب أي زفير، فما قيل من تشخيص مبدئي أن ثمة فيروس في المخ.

ومع تداعي مرضه استمع أبوه إلى نصيحة طبيبين أوصياه بعدم إتعاب المريض والتسليم بالقضاء والقدر.

عندما خرج كمال بويجي إلى المنتظرين في الخارج حمل كلامه النذر:

– لا أظنه إلاّ مودّعاً هذه الليلة!

– كم سيطول الوقت انتظاراً لخروج روحه؟ هو متعِب حتى في مماته.

– تفاءلوا بالخير تجدوه، ألا تعرف آداب زيارة المريض. فلو قلت عند وقوفك على رأسه سبع مرات: "أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك"، لعافاه الله من مرضه.

– أقلّك الرجال ميت ميت فانشغلوا بتجهيزه أفضل من بقائكم حول منزله أو فراشه.

رشح هذا الحوار الدائر بين أصدقائه عن انتداب اثنين منهم لمهمة تحضير لوازم الغسل وجلب الكفن والحنوط.

ظلّ جمال ممسكاً بمقالبه الساخنة إلى آخر لحظة من حياته، فكلما أعلن أحد المحيطين بفراشه عن موته سعل أو تنحنح فيقف الخبر في الأفواه قبل تعميمه على مسامع المجتمعين أمام المنزل.

طال مكوث الأصدقاء بين الكثافة والنقصان انتظاراً لاحتضاره المقطّع وتفرّق بعضٌ منهم وأقبلوا على أشغالهم منتظرين خبره الأكيد.

ذلك اليوم وفي مسجد الأوابين كانت صلاة العشاء لليلة الأربعاء من شهر يناير لعام ٢٠٠١ صلاةً مشهودة حين ارتفع النحيب الجماعي، ومن لم يكن داخل المسجد هرع لمعرفة ما يحدث.

وقبل معرفة ما حدث تنافرت الأقاويل من قبل أولئك الذين هرعوا إلى المسجد:

– هل كُسفت الشمس؟

– ربما مات جمال وغسل وكفّن وما هذا البكاء إلا صلاة عليه.

هذا المتحدث نال قسطاً من اللوم:

– لو مات جمال فسوف يقيم أهل الحي فرحاً وستزغرد النساء ابتهاجاً بموته وليس البكاء عليه.

وكانت مقولة مصطفى علي أقرب إلى إشاعة خبر بكاء المصلين:

– حسين مغربل قضى نحبه وهو ساجد.

وقبل تجمع الأهالي من جنبات الحارة وانصبابهم في رواق المسجد، كان الإمام يوصي المصلين بالاستواء وسدّ الفرج ومن خلال الصف الخامس تحرك فيصل لسدّ فجوة ظهرت في الصف الثاني. كان حضوره ملفتاً إذ هي المرة الأولى التي يشاهد فيها في المسجد، حتى إن إبراهيم مباح أفسح له كي ينتقل إلى الصف الأول.

ومع الركعة الأولى ظهرت نهنهة فيصل تجاهد كبح نشيجها وأفلتت عنان نفسها مع الركعة الثانية فهيّجت كوامن الإمام الذي استجاب لها ولم يستطع إكمال السورة، فمنذ أن تلا {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ...} ظلّت بقية الآيات محبوسة بين الغمغمة والبكاء، فكلّما عبر آية بجهدٍ جهيد لم يستطع صوته ارتقاء ما تلاها، فاستثار أدمع المصلين واشتركوا جميعاً في بكاءٍ ممتد.

كان فيصل يبحث عن منفذ لإخراج نارٍ تأجج لهيبها في صدره فبزّ نحيب المصلين عندما أخذ في النحيب مردّداً: {أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ...}.

ذلك النحيب استثار الإمام فأطال انتصابه وأخذ صوته يتهدج ولو لم يتدارك بعض المصلين رفع الصوت ب"سبحان الله" لظلّ واقفاً عند تلك الآية يتكسّر رقةً وخشوعاً.

وصل المصلون إلى التشهّد الأخير وبقيت أصواتهم متأزمة ببكائها المديد بينما من وصل إلى رواق المسجد كان ينتظر معرفة ما حدث لاستثارة كل هذا الدمع.

كان خالد بلوى أسرع من استجاب للتسليم حتى إنه لم يكمل التشهّد حين كان عقله عالقاً في معرفة من ذا الذي يجاوره في الصف وتسبّب في ذرف دموع كل المصلين.

ومع انتقال بصره في تصفّح ملامح من كان سبباً في تلك العاصفة البكائية اكتشف فيه وجه فيصل سليم.

نهض المصلون لتقبيل فيصل وظل سليم يكفكف أدمعه وهو يرى ابنه يتقبّل التهنئة والدعوات.

وكان مصطفى أبو خداش أكثر المصلين احتفاءً بصلاة فيصل فانكشف جهده الكبير في افتعال الفرح، مطالباً المصلين بترديد: "الله أكبر... الله أكبر" فضجّ المسجد بالتكبير وقد تناقلت مكبّرات الصوت ذلك التكبير، وكل من في الخارج زادت حيرتهم في ما يحدث في المسجد.

تغيرت حياته تماماً.

في ذلك المساء الدامع تلفت الرُّكَّع السجود صوب فيصل بينما كانت أدمعهم لا تزال عالقةً بين الأهداب، انتظروا نهوضه من سجدة الشكر؛ تلك السجدة التي بدأها منذ تسليم الإمام وهو لا يزال ساجداً.

كل شيء سكن في مكانه، لا صوت ولا حركة ولا... وكأن الكون توقف من غير أن يحدث ارتجاجاً أو صخباً.

غشت المصلين حالةٌ من الثبات السرمدي فاستحالت اللحظة زمناً ممتداً لا يستطيع المرء اجتياز المساحة المفرطة في الامتداد، وكل منهم يحوم ضائعاً في ما يفكّر فيه. دخلوا نفقَ تلك اللحظة ولم يعودوا إلى حياتهم. مخيّلاتهم تعبر محطات بدأوها من زمنٍ سحيق ولا يزالون يوغلون في زمنٍ أعمق وأبعد، مستشعرين أنهم هباءٌ ألقي في فضاءٍ لا حدود له. كانوا تائهين في الزمن المطلق.

"سبحان الله"، ارتفع التسبيح لله العظيم فتنبّهوا جميعاً إلى أنهم عادوا إلى الحياة مسبّحين مستغفرين.

كان أول صوت يخدش ذلك الخشوع صوت عبد الرحيم أبو جمالة:

– سبحان الله.

وكأن أمراً قاطعاً تلقّته آذانهم فهبّوا مجتمعين للسلام على فيصل وتهنئته بأن الله منّ عليه بالهداية.

كان قادماً من منزل صديقه جمال؛ فقد ظلّ مرافقاً له منذ مرضه المفاجئ الذي أنهى حياة شاب بالسرعة القصوى، وكأن مهمة ذلك المرض تقتضي ألاّ يمتد عمر جمال أسبوعاً إضافياً.

في غرفةٍ امتزجت فيها الرطوبة وسوء التهوئة برائحة عطرٍ رخيص وتغلغلت بين أثاثٍ بسيط رقد جمال على فراشه وهو يهوي في حياةٍ ويصعد إلى حياة...

صوت خالته ياسمينة ظلّ حائراً وفي كل مرة تسأله:

– يا ولدي، ما الذي حدث لجمال؟

– لا أعرف يا خالة. كنا جلوساً وفجأةً توالت المتغيرات على حالته.

كان هذا هو السؤال المبدئي ثم توالت أسئلة عديدة من الزائرين وكذلك من الطبيب المنتقل إليه من المستشفى المجاور، وبعد ذلك لم يكن هناك سؤال محدّد سوى الأمنية بأن يلطف به الله.

– هي عين لم تُصلّ على النبي ولو لم يرتقِ فسوف يموت من فوره.

هذه الجملة بثّتها انشراح شماخ مع إصرارها على ياسمينة بحمل ابنها والسفر به إلى المدينة المنورة للكشف عليه عند الشيخ الجهني.

استعاذت ياسمينة من الجملة وانطلقت مباشرةً لاحتضان ابنها وتقبيله، ونهضت على عجل لتتناول

المصحف وبدأت بقراءة سورة الملك. كان صوتها يتهدّج مبحوحاً بحشرجاتٍ غليظة:

{قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ.}

فرحت ياسمينة وهي ترى جفنَي ابنها يتحركان كأنها في نصف استفاقة وهو يضغط بيده المتهاوية يداً كانت تتحسّس أنامله.

– هذا فيصل، لم يتركك منذ أن جاء بك.

كان فيصل يبحث عن عينَي جمال علّه يسرق لمحةً ليطمئنه بأنه بجواره كما كان سابقاً ولن يتركه يبتعد عنه. ضغط على يديه وكأنه يذكّره بجميع معارك النزال التي خاضاها من غير أن يتخلّى أحدٌ منهما عن الآخر.

وقف فيصل مبهوراً من انسلال نفس صديقه وتحوّله جثةً هامدة بينما ترك أنامله الباردة معلّقةً في جوف كفّ صديقه.

لم تمضِ على وفاة جمال إلا ساعات ليُحمل على الأكتاف في دهشةٍ عظيمة بين أقرانه وجيرانه.

في الجنازة ظلّ فيصل ينتحب ويكتم نحيبه بصورة آلمت من كان يساير النعش، وعلى فوهة القبر نزل فيصل يوسد صديقه الحميم حتى ظن المشيّعون أنه قضى نحبه بجوار صديقه ولولا أن انتزع من القبر نزعاً لظلّ هناك.

اتخذ هيئةً رصينة وأغلق على حياته السابقة الأبواب الموصدة.

لازم المسجد قارئاً للقرآن على يد الشيخ مبارك رباح وفي كل يوم يتعرّج في المعرفة القرآنية ويزداد نهمه بالاطلاع على كل ما يُقال من آراء في نصرة الدين وإعلاء شأن كلمة التوحيد.

لم يصل إلى الرضى مما يفعل وكانت نفسه تنازعه إلى فعل أمر عظيم خاصة عندما سمع مواعظ شيخه عبد الرحمن التميمي:

– لا بأس، فأنت في حالة تجديد لإسلامك ولا تنسَ أن الإسلام يجبّ ما قبله... فترفّق بحالك.

داهمته خاطرة مباغتة: هل كنتُ كافراً حتى يجبّ الإسلام ما قبله؟... أغلق خواطره وبقيت أذناه تلتقطان كل حديث أو عبرة تُلقى عليه.

بحضوره محاضرات الشيوخ الموزّعة بين مساجد مدينة جدة كان يومياً يتعلّم شيئاً جديداً ويتفقّه في أمور دينه ويكتسب درايةً بما يجب أن يكون عليه المسلم.

راقت له صلابة الحق في شيخه حسن الوفري.

ذات مساء خرج من محاضرة الشيخ صالح الجاري مهموماً مكدّر المزاج حيث فهم إن الله لا يغفر إيذاء

ظلّ تلك الليلة مستغفراً ولائذاً بالله أن يتجاوز عنه وعن جمال في ما تسببا فيه من إيذاء للناس.

قبل محاضرة الشيخ صالح الجاري كان مطمئناً إلى حياته الحالية، إلاّ أن تلك المحاضرة أيقظته من غفلته وأيقن أن لديه جردة حساب طويلة عليه أن يؤدّي مخالصتها مع الكثير ممن أذاهم قبل الممات.

جال على الكثيرين ممن أخطأ في حقهم طالباً العفو والسماح وأن يحلّوا ذمّة صديقه جمال.

في ضميره كان يعرف أن حقاً وحيداً بقي متأرجحاً في رقبته، وكانت نفسه تنازعه بين إغلاق باب هذا الحق أو تركه مواربا.

كان ضنيناً على أي أذن أن يودعها ذلك السر، فبعد موت جمال لم يكن أحد ليعرف ما تنوسّد عليه نيته، وفي محاولة أخذ الصفح ممن أذاهم بقي حق فائز البيشي معلقاً. مراراً وقف بالباب عازماً على طرقه، وفي كل مرة يُقلع عن طلب العفو ويسارع بالانسحاب جازماً أنه لن يتوب عن تلك المعصية فليصفح الله عنها.

لم يقدر على أخذ الصفح والغفران من فائز إلا أن حواسه جميعها تتوق إلى أن يعتذر لها أيضاً، ولأنه لم يعد من سبيل للالتقاء بها فقد جلس أمام أوراق كثيرة ليكتب إليها رسالة:

أحببتك وغرقت فيك ولم أجعل حدوداً.

بالأمس اكتشفت أنني لا أستطيع تنفسك كما أحب

وأنك كما قلت لي أنك مجرد ورق
جئت متأخراً...
كان الزمن قد وضعك في مشوارٍ موازٍ
ليس أمامي سوى أن أتمنّاك.
أعتذر لك كلك،
أعتذر لأحلامِك وواقعك
وأعتذر لنفسي التي أغريتها بك.
أكرّر أسفي لأني لم أستوعب الفرق بين الأمنية والواقع.

وضع الرسالة في ظرف وتأكد أنها استقرّت في الجيب السفلي واتّجه إلى بيت فائز. شعر بارتياحٍ عظيم ونفّذ خطته عاقداً النية بأن يكون هذا هو اللقاء الأخير.

هواء المكيف مكّن الإمام من توسيع خطبته، ونشط في ضرب الأمثلة عن أهمية الإحساس باحتياجات الآخرين ورفع الظلم عنهم، وعندما بلغ هذه النصيحة كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف وبدأ المصلّون يُظهرون تململاً زائداً، وتدافع مصلّو الخارج للوصول إلى لحظة تنعم بالهواء البارد هرباً وحمايةً لأجسادهم وملابسهم من تقطر العرق ونضوج وجوههم من شدة الحرارة. أحد اللائذين من قيظ الظهيرة رفع صوته عالياً:

– يا شيخ فيصل، ارحم المصلّين من حرارة الشمس؛ فقد متنا.

الهداية هي بحث عن نقطة ارتكاز فتحديدها بفعل قد يكون موقعها صائباً في مكان أخر.

سليم هو الشخص الوحيد الذي لم يكن مرتاحاً لاستقامة ولده.

أسرّ بهذا لصديقه الحسن البركاتي فأخذ يهوّن عليه:

– الأبناء يأتون ليتجاوزوا مغامرات آبائهم.

راقَ له هذا التعبير عندما تذكّر مغامراته شاباً فتابع حسراته بينما كان البركاتي يقهقه بضحكةٍ مجلجلة:

– الأيام لا تأتي بجديد. الأشخاص هم الذين يأتون بالجديد مثل القاطرة تسير على قضيبين ولو بقيت في مسارها أبد الدهر فإن حركتها لا تحدث حدثاً خارج حركيتها بينما الركّاب هم من يحدث تلك الأحداث.

فيصل جاء ليقفز بشغب أبيه إلى مدارات أخرى.

التهنئة التي حصل عليها سليم داخل المسجد ها هو يسدّدها من رصيد الحسرات المدّخرة، فغدا مفلساً لا يجد لحظةً يكتنزها من كثر إنفاق اللوم على صنيع فيصل معه.

كانت خلجات خواطره تتّسع حتى فاضت من رأسه:

– ذلك النكرة الذي لا يصلح لفعل شيء ذي فائدة أصبح كل من حوله يطلقون عليه لقب شيخ.

يومياً يتّسع الكابوس المرعب الذي يأتي من خلال ذكر اسم فيصل. لم يعد سليم يعرف ما الذي يقوله أو يفعله أو إلى من يلتجئ لصدّ اعتداءات فيصل على حياة كل من انتمى إلى تلك الأسرة الصغيرة.

أول تغيّر طرأ على فيصل عدائية الفعل، وأول من تلقّى تلك العدائية أمه وأخوته حين كانوا ملتفّين حول مسلسل مصري أمضوا أياماً وهم يتابعون حلقاته، ولكون المسلسل بلغ نهايته فقد كان الجميع مشدوداً وأكملوا مواصلة شدّ الأعصاب حينما اعتدى فيصل على جهاز التلفاز وتناول قضيباً معدنياً حمله معه من الخارج

وهوى بضربات متتالية مهشماً كل أجزاء التلفاز ومطلقاً وعيداً لمن فكّر أو يفكر بجلب جهاز بديل.

ارتاعت والدته مما فعل وأخذت تحصنه بالآيات التي كانت تتلوها عليه في ساعات الكربة، ومع حنوها عليه وتمرير قطرات الماء تلتهب حواس ماردٍ لينطلق راكضاً إلى داخل الصالون مستكملاً تهشيم جهاز التسجيل وتمزيق أشرطة الأغاني، وطالت يده جميع الذكريات المصورة، ووقف أمام الجميع يمزّق أغلى لحظات مرّت على الأسرة وتمّ اعتقالها في صورة...

– صورة يا فيصل!

وارتاعت أمه أيضاً عندما كمّم فمها بقسوة وهي تستغيث بالطبيب لإنقاذ أختها من نوبة ضيق تنفس حادة، فتجرأ وأطبق على فمها مانعاً استغاثتها من العبور، وانفعل محتداً:

– ألا تعلمين يا أمي أن صوت المرأة عورة؟

ولم يقف عند هذا الحد إذ امتدت يده إلى عباءتها رافعاً إياها على الرأس، ومتلصّصاً على جزء من صدرها ظهر بسبب شدّه لعباءتها، فكزّ على أسنانه:

– استري نفسك يا امرأة!

هذا الرضوخ الذي أصاب والديه نقله إلى مرحلة متقدمة من التفتيش على سلامة المفردات التي تجعل كل فرد محلّ شك في إسلام معتقده وبعد ذلك تصبح

الكلمات في موقع اختبار فربما تعلق بها شوائب تؤدي إلى انحرافٍ عقدي.

توالي الأيام زاده تنطّعاً، فامتنع تماماً عن الشراء والبيع بالنقود الورقية مطالباً من حوله باستبدالها بالذهب أو الفضة فعجز عن تدبّر مبالغ ضئيلة من الذهب أو الفضة وتحسّر على عهد الخلافة ومسكوكاتها... انتقل إلى فكرة المقايضة فلم يفلح بالتعامل مع الآخرين، واستحضر كل الأدوات القديمة التي كانت مزدهرة في التعاملات البشرية، واكتشف أنها لا تصلح لزمنه، فأصيب بلوثة عصبية متهماً الناس بتبديل دينهم حتى غدا الدين غريباً.

تسلسل الموانع وقف سدّاً أمام استكمال هدايته حتى إنه فكّر بقطع التيار الكهربائي عن منزلهم لينعم بالهدوء وليتخلّص من صخب الحياة.

امتنع عن العمل بحجة أن المال الذي يحصل عليه يخالطه ربا، ولولا أنّ شيخه أجاز له ذلك وحرّضه على التمسّك بعمله علّ الله يجعل فيه خيراً كثيراً للمسلمين.

ارتضى أن يعيش وسط كل المنكرات الحياتية كونه مضطراً. الشيء الوحيد الذي لم يسمح لأحد أن يعارضه فيه هو الصور، وحرّمها على نفسه وعلى أهل بيته.

أصبحت جملته الأثيرة لمن يعترض على فعل أو قول يتفوّه به:

– أنا القابض على الجمر... والاستقامة لا يرضى بها الضالّون.

تحوّل حضوره في البيت إلى تيار كهربائي صاعق، وغدت كلماته أوامر يجب التقيد بها من غير مجادلة:

– أنا أعلمكم في ما قال الله ورسوله صلى الله عليه وسلّم، فلا تظنّوا أنني أتعنّت.

كان سليم يدعو الله أن يصلحه أو يعجل بموته:

– أستغفرك يا الله!

استدرك دعوته وردّد بينه وبين نفسه:

– أي صحوة إسلامية جرفت ابني، فبالأمس لم يكن يحافظ على صلاة وكان طوع بناني، والآن يدّعي الاستقامة ويضعني مع أبي جهل.

إيذاء "أو هداية" فيصل تسلّل إلى الجيران، ولم يجدوا بدّاً من التحدث إلى أبيه علّه يكفّ ابنه عن حياتهم، فأخذ يتحدث إليه متلطّفاً:

– انظر يا ابني، كل العلماء الأجلاّء لا يفعلون أفعالك.

– من هم هؤلاء الأجلاء؟

صمت وأخذ ينظر إلى أبيه مستنكراً مناصحته:

– هل تقصد ا. ب. وا. ع.؟ أبشّرك، فهما كافران واقتصرت مهمتهما على تمجيد السلطان وإخضاع المؤمنين لسلطته.

صعق سليم ووضع يديه على أذنيه مستصيباً بما كان يسمع وأخذ يرجوه أن يكفّ عمّا يقول:

– يا ولدي، ليس لنا جنب نتكئ عليه فلا تعجل بنهايتك ونهايتي.

– هذه الخشية تصيب من لا يتوكّل على الله... {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ}.

ارتعد سليم غضباً وانفعل ما جعله يقف على قدميه جاعلاً يده اليمنى في وجه فيصل:

– أجل، أنا متوكّل على أمك!

قابل فيصل ذلك الانفعال ببرودة أعصاب وحرق للنفس حين أطلق على أبيه سؤالاً يفتّت كل معاني البرّ:

– أنت، هل تعرف شيئاً عن دينك؟

نفر سليم من جلسته وكاد يجنّ لمقولة ولده:

– تقول لي: أنت! أهكذا علّمك دينك... لا حول ولا قوة إلا بالله.

– إسمع، لديك انحرافات عديدة ولولا أن الله أمر بمصاحبتك في الدنيا معروفاً لتبرّأت منك.

تحرك فيصل قليلاً وحدج أبيه بنظرة ثاقبة:

– أظهرتم النفاق بل الكفر البيّن ويستوجب قتالكم وقتلكم جميعاً.

وخرج لا يولي على شيء.

فيصل وجمال وعمر... ثلاثة مفاتيح سقط أحدهم.

تراتبية أعمارهم على درجة متساوية، سقط منهم جمال وظلّ عمره عشرين عاماً، حتى لو مضت ألف عام سيظلّ عمره ثابتاً.

جمعتهم صداقة البيوت المتجاورة والظروف المتشابهة وحوض الندية. كانوا أنداداً في العمر إلا أن عمر لم يكن الفشل نذاً له فقد ردم هذه الحفرة مبكراً واستطال بعيداً عنها. منذ دراسته الأولى أظهر نبوغاً فائقاً في قراءة الكتب والبحث عنها واجتياز مراحل التعليم (العام والجامعي) بكل يسر وسهولة.

اكتسب تقدير رجالات الحارة بعد إقلاعه عن الشغب، رغب في تنظيف سيرته من ذكريات المراهقة فواظب على الصلاة في أوقاتها واستمع إلى كل نصيحة تعلق بأذنيه فزاد الإعجاب به من قبل كبار السن.

ظلّ صديقاً حميماً لفيصل خاصةً بعد موت جمال، كلما تقابلا استدعيا ذاكرتيهما على تلك الأيام التي كان الخاطر فيها مرتاحاً، وسلكا طريق الهداية معاً، وما هي إلا أيام حتى نشأت بينهما علاقة متوترة، فبعد أن جمعتهما طريق الصعلكة فرّقتهما طريق الهداية.

كان الطرق على باب المكتب خفيضاً يشارك خفوضه صوت سليم:

– يا عمر، أنا عمك سليم.

تواصل الطرق بإلحاح فيما كانت مشاعر مدير المكتب تغلي من جلافة الطارق وعدم مراعاته أقدار الناس، وفكّر لو أنه تقاعس عن فتح الباب فسوف يتواصل الطرق، فنهض مستفزّاً تماماً:

– لا يوجد هنا عمر بل يوجد الشيخ عمر، ألا تفهم يا رجل؟

حدث بين المتحدثين جدالٌ ارتفع فيه صوت مدير المكتب مغلظاً في القول، فتهادى إلى مسامع عمر صوت يعرفه جيداً فنهض من مقعده محتفياً ومقبلاً رأس الضيف ومبتدراً تحيته:

– لو حدثتني لجئتك إلى البيت يا عم بدلاً من أن ترهق نفسك بالمجيء.

ذلك الاحتفاء مكّن سليم من نفخ صدره والاعتداد بقيمته متمنياً البقاء في وقفتهم ريثما يتمتع بإذلال الرجل الذي كان يعنّفه قبل لحظات.

جذبه عمر وأجلسه في صدر المكتب محفّزاً مدير المكتب على الإسراع في تقديم الماء والقهوة ناشراً ابتسامته الوقورة في وجه ضيفه ومصغياً إليه.

اعتذر عمر عمّا حدث فاتّسعت شهية سليم:

– يا ولدي، لم نعد نستطيع أن نناديكم بأسمائكم فكل واحد منكم أصبح شيخاً ويغضب دون ذلك.

– نحن أبناؤكم مهما كبرنا.

أطلق زفرةً عميقة تظهر اتّساع فجوة حزنه، متندماً على ضياع العمر في تربية ابن أسقط هيبة أبيه وشكّك

في دينه وتعدّى على القيم وانحرف لديه ميزان الصواب فجعل الصالح طالحاً.

ارتفعت وتيرة الكلمات حسرةً وهو يعدّد الليالي الطوال التي أمضاها في تنقية معاش عائلته من الحرام ومؤازرة أحلامهم ذاكراً أنه لم يخذلهم في تحقيق ما كانوا يتمنونه.

انتقل عمر لمجاورة سليم في جلسته وأخذ يربت على كتفه، فقابل تودّد عمر بالبكاء:

– تصوّر أنه يقول لي "أنت لا تعرف دينك"! تحدّث معي من غير أن يراعي عاطفةً أو بِرّاً.

تناول عمر منديلاً من على سطح مكتبه وأخذ يمسح الدموع المنحدرة من أعماق سليم؛ ذلك الرجل الذي يعرف مقدار صلابته واعتداده بنفسه ولم يلحظ عليه – في أشد المواقف – جزعاً أو خنوعاً. تندّم وهو يرى انكساره وتساقط أدمعه كامرأةٍ ليس لها معيل.

تنبّه سليم إلى انكساره وتداعيه فتناول منديلاً قطف به انكساره وقذفه في سلّة المهملات، محاولاً أن يبدّد أمطار عينيه وأن يعود صحواً كنهارٍ حمل الشمس إلى كبد السماء:

– أعرف أنه عاقّ، لكن أبوّتي له لم تنضب وخشيتي عليه كما لو كان طفلاً صغيراً لا يقدر أن يلتحف بغطاء في ليلةٍ باردة. الآن أخشى عليه من الهواجس التي تحوم في رأسه وأظن أن تلك الهواجس ستخرج كحيّةٍ تسعى.

أصبح لدى فيصل أكثر من منزل وإن كان ظاهرياً غير ذلك، ويجزم الجيران بأنه لا يزال قاطناً مع أهله في الغرفة المنفردة المطلّة على الباب الخارجي والتي جدّد تشييدها بإضافة مساحة من الجهة الخلفية لبيتهم كون غرفته السابقة لم تعد تكفي زواره من المشايخ وطلبة العلم. المساحة التي اقتطعها مكّنته من تشييد عدة غرف توزّعت بين الدورين الأرضي والأول.

فكّر عمر في زيارة فيصل بعيداً عن بيتهم، وسرعان ما تحقّقت تلك الأمنية، بدأت بغياب فيصل واحتجابه عن البيت ومسجد الحي والمراكز الدعوية ودروس الزوايا، وعلى أفواه الأصدقاء:

– إن أردت الالتقاء بفيصل فلن يدلّك عليه إلا الشيخ أبا الدرداء.

– ومن هو أبو الدرداء؟

– ألا تعرفه؟ هي كنية للشيخ عبد الرحمن العبد الكريم.

عمر لا يحبّذ تطرّف هذا الشيخ وفي أكثر من مناسبة نشب بينهما شجار حول مسائل فقهية وعقدية، وتوتّر العلاقة يجعله هدفاً صعباً.

– ألا يوجد شخص أخر يوصلني إليه؟

– في الوقت الراهن لا يعلم موقعه سوى الشيخ أبي الدرداء.

لم يجد بدّاً من طرق الحديد البارد، فسخونة هذا الشيخ تجعله يتمدد كصهريج معبأ بالوقود، احتاج الأمر إلى اعتذارات وتحيات لم يكن راغباً في إتيانها، وبعد مكالمتين طلب التواصل مع فيصل لأمر عائلي.

طوال الطريق الموصل إلى المقرّ ظلّ صامتاً يرتّب المواضيع التي تعقد مفاتحة فيصل بها. استغرب، لماذا التحرّز الشديد في إيصاله بواسطة سائق وسيارة مظللة والدوران داخل الحي بقصد إضاعة أي علامة تدل على المكان؟

كان اللقاء بارداً بدأ بالتصافح من غير تبادل الأحضان كالعادة. كان المجلس فخماً ومؤثثاً تأثيثاً فاخراً وثمة شباب تظهر عليهم الحدّة وعيونهم تفصح عن عدم الرغبة بالضيف. دار عامل آسيوي عدة دورات بدأها بدوران مجمر العود ودلّة القهوة وصحن ممتلئ بالتمر.

أراد عمر أن يكون البادئ في فك وجوم الحاضرين:

– هل هذا تمر خلاص يا شيخ فيصل؟

– شكلك لا تفرق بين التمور، أصلح الله بالك، هذا تمر عجوة المدينة فهي سيدة ثمار الدنيا وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفضّلها على باقي التمور فهي تمنع السحر وتخلّص الجسم من سمومه.

– ما شاء الله! فإن كانت تمرة تُخلّص الجسم من سمومه فكيف بمن يسمّم قلب أقرب الأقربين إليه؟

شعر فيصل أنّ عمراً يحمل له جملاً لا يريد أحداً أن يسمعها، فأوقف كلامه ودعاه إلى الانتقال إلى مجلس

آخر وأغلق عليهما الباب:

– هيئتك تدل على أنك تحمل قولاً، فقل ولا تكتمني خبراً.

– اليوم زارني العم سليم.

– آه فهمت. هل مجيئك لتأديبي وإظهار أنني ابنٌ عاق؟

– فعلاً كنت عاقاً يا فيصل. كان أبوك يبكي أمامي ولم أره يوماً باكياً.

– يبكي على الشيخين أم على نفسه؟

لم يستوعب عمر من هما الشيخان، فلم يحدّثه سليم بتفاصيل ما دار بينه وبين ابنه، ومع ذلك لم يشأ أن يوقف تدفّق الكلام:

– جئتك ناصحاً ومُظهراً لك حقيقة ما يحدث وأن بلادنا مستهدفة وأن العالم الإسلامي يقع داخل مخطط أكبر من استيعاب خيوطه.

استشاط فيصل غضباً:

– بلادك أنت وأمثالك ممن يزيّنون للناس الإثم.

توقّف قليلاً وأضاف على غضبه استنكاراً فجأ:

– ثم من أنت حتى توضّح لي الطريق؟

وأطلق ضحكةً مستهجنة لتغيير نبرة صوته:

– أنت جامي، تسير على خطى شيخك الكبير.

كان عمر مندهشاً وإن كان على دراية بسلوكيات فيصل مثل الانتقال من موضوع إلى موضوع رغبةً في التخلص ولعجزه عن الإتيان بالحجة ظلّ عمر في حالة

صمت ملتزماً بهيئته حين كان فيصل يدور حوله رافعاً سبابته في وجهه:

– لمعلوماتك إن كنت جاهلاً، لم يصنع بنا الكفار ما صنعوا إلا بعد أن بصم مشايخكم وحلّلوا للكفار القدوم إلى أرض الحرمين، وبسبب تحليلكم أخذوا شرعية استعمارنا.

وكأنه لم يسترح من فورته فواصل الدوران وسبابته على ما كنت عليه:

– انظر لعظمتكم، وظهرت عظمتكم باستعادة التاريخ واخترتم أسوأ ما فيه بجلبكم الإمبريالية.

أطلق عمر ضحكةً عميقة:

– قل لي بالله عليك، وأنتم ماذا فعلتم بدينكم سوى قتل الناس وتشريدهم وإرعابهم؟

تفرّس عمر في وجه فيصل الممتقع غضباً، وأشار له بالهدوء:

– حسنٌ، نحن من أحيا الإمبريالية، والحقيقة أنتم من أحياها، كل العالم فزع منكم، وجاؤوا بقضّهم وقضيضهم لمطاردتكم في بقاع الأرض. والله ثم والله لقد قضيتم على سماحة الإسلام بإرهابكم؛ فلا تجد كائناً على وجه البسيطة لم يصله إرهابكم؛ فأي دين أو جهاد تتحدثون عنه؟

مراراً حاول عمر ثني فيصل عن إطلاق التهم أو التعدي على علماء أجلاّء فلم يفلح، فوجد في صمته جملة طرأت على باله:

– علينا دعم الحقيقة بأن لا نكذب كي لا ندفن جمال الحياة. أنتم تتبعون كذبة!

أطلق فيصل ضحكته المستهجنة:

– أما زلت مغرماً بالألفاظ الأنيقة؟ كنت أتمنى لو أنك أغرمت بالأفعال الدالة على إيمانك.

صمت متذكراً فعلة عمر وتعقيبه عليه في إحدى المحاضرات، وواجهه بما لم ينسه:

– أنا لم أنس تعقيبك على محاضرتي ذلك التعقيب الذي يحمل الكره ويبطن الكفر.

انفعل عمر وأخذت الكلمات تتسرّب من بين أشداقه يخالطها غيض:

– الحياة ليست لعبة مكررة كي تفنيها على عجل وتنتظر إعادتها، لا، هي مرة واحدة فقط.

– أنت ومن على شاكلتك تريدون البقاء في هذه الحياة الدنيوية، ولو كنت مؤمناً حقاً فسوف تحث الخطى للوصول إلى نهايتها بعمل يرضي الله ورسوله.

ازداد انفعال عمر وألقى كلمات عديدة يشوبها اللوم والتقريع وأنهاها بإلقاء تحية الوداع.

خرج والغضب يتجدّد في أوردته متأسفاً لأنه صغّر خدّه لصديقٍ خسر كل شيء حتى نفسه.

"بعض الصداقات كالورق الأصفر إن لم يسقطها الخريف وتعبث من حملها فقم بتقليم شجرة وجودك منها."

ارتاح لصياغة هذه الجملة وكان فرحه الاكبر أنه قرر التخلص من صداقة فيصل.

"الصداقة المتعثرة كالحفرة، كلما زاد عمرها زدمت."

– طلائع الحياة كبذور حقل إن لم تفقس حاملةً اخضرارها فهي فاسدة.

أراد البركاتي الترويح عن صديق العمر ولم يكتفِ بتلك الجملة فتابع:

– منذ البداية ظهرت فسيلة مستقبل فيصل تالفةً منخورةً وشديدة الملوحة.

نذرت أمه ذبح كبش أملح إن صلح حاله وتبدّلت خطوات سيره العرجاء والتزم السير في الطريق المستقيم، ومن حبها لأولادها كانت تحصنهم وتلقي عليهم بكلمات الله التامات كلما همّوا بمغادرة البيت، وفيصل لوحده كانت تقرأ عليه كل التحصينات وتنهيها بالمعوّذات، نافثةً رذاذ ريقها على وجهه وتحوط به على صدره ورأسه. كانت تفعل ذلك وهي عالمة بأن فيصل هو الوحيد الشاذ بين إخوته؛ شاذ في الأكل والشرب والنوم والهيئة وتأرجح المزاج وإتيان كل سلوك مغاير للناس. تعلم الكثير عن غرابة أطواره وأنه منبتّ عن سلوك إخوته، فمنذ ولادته كان ميالاً للاحتدام مع فرط متزايد في الحركة، سريع التنقل كأنه عقرب يلدغ الزمن في كل حين. وكانت كلما أغدقت عليه حبها توغّل في الشذوذ حتى اقتنعت بمقولة انتشرت بين الناس بأن ثمة شخصاً في كل أسرة يكون أضحيةً لأهل البيت. وسعاد أعدّت فيصل أضحيةً لكل أفراد البيت. كان

هكذا، عجل منذ طفولته المبكرة لا يحب الانتظار، ولأنه لا يحب إهدار اللحظات من غير الانتقال مما هو فيه، فإنه يقترف أيّ حماقة تجنّبه الانتظار.

هذه الخصلة أنهكت صديقه جمال حين كان يقوم بدور صمام الأمان في حمايته من العيون المتربّصة أثناء مداهماته الليلية لبيت فائز. اقترب كثيراً من طفولة أبيه شغباً وتخصّصاً في شجّ الهامات، وكم من رجل حمل شجّاً غائراً استودعه فيصل عنده.

– اشتكى منه طوب الأرض.

ولم يجد سليمان سعيد سوى هذه الجملة الشعبية ليمسح بها آثار شغب فيصل بعد استقامته وإلقاء الخطب على المنابر، وكأنه أراد تأكيد معرفته بطفولته:

– لم يكن أحد يتوقع أن يكفّ فيصل عن إيذاء الناس.

في إحدى محاضراته في المسجد تعرّض لمناقشة فكرة الولاء والبراء مظهراً انفعالاً غير منضبط ولبساً ونقصاً في المعرفة. ولم تقوَ أذهان المصلين على فرز المقولات، إلا أن الرضى والاستحسان كانا باديين على وجوههم فبادلهم الانشراح وأخذ قسطاً كافياً من الاستمتاع بتحفيزهم إياه على مواصلة حديثه.

استأثر على مسامع المصلين بتلوين صوته وعذوبته بالإكثار من الآيات القرآنية للتدليل على كل ما يقوله، وبين لحظة وأخرى يصمت حتى تلتهم عيناه عنصراً جديداً لمواصلة الحديث. رثّب العناصر التي رغب في

الحديث عنها وبدأ بالتأكيد بأن عقيدة الولاء والبراء من الإيمان مع وجوب ولاء المؤمنين بعضهم بعضاً ذاكراً مظاهر الموالاة ومغلظاً تحريم ولاء الكفار والمنافقين مع وجوب البراءة منهم ومعاداتهم.

خارج المسجد جرى الحديث بين أهالي الحارة، وقد أجمعوا على مقولة نعيم عبد الله:

– سبحان المعطي! فيصل الذي لم يكمل الثانوية يستطيع كشف المتلاعبين بالدين! سبحان الله يعطي العلم لمن شاء.

تراخت قدرات فيصل التعليمية في الصف الثالث الثانوي وقد غادر صفوف الدراسة بسمعة سيئة لحقت به عند بوابة أي مدرسة رغب في الانتقال إليها.

كانت تهمته الصارخة الاعتداء على معلّميه، وتمّ تطبيق العقوبة المنصوص عليها بمنعه من مواصلة الدراسة لعامين قادمين، هما السنتان اللتان كانتا سبيله إلى أن يذرع الشوارع والأزقة من غير هدف.

منذ البداية سقط ضحيةً لعناده إذ كان بمقدوره الاعتذار وتقبيل رأس معلمه موسى قيدان (هو الأحق بالاعتذار فقد جرح خاصرته بغرز قرن الغزال) إلا أن أنفة نفسه لم ترضخ أمام فداحة صنيعه فاحتضنته الشوارع المفتوحة.

كان يمقت رجال الشرطة ويتحين الفرصة لإذلال أيٍّ منهم. في إحدى المرات ادّعى أن حدسه يدلّه على أي عسكري حتى ولو لم يرتدِ ملابسه الرسمية، فاجتمع

عليه زملاؤه في تحدٍّ يبرهن فيه على سلامة حدسه فقبل التحدي وانتقل معهم إلى منطقة تجمع أصنافاً من البشر، وأخذ يتفرّس في وجوه المجتمعين وبسرعة فائقة جذب ذقن رجل مثقل بالشحوم فسقط على الأرض متألماً، وعندما علم من زملائه بخسارته الرهان، فالرجل لم يكن عسكرياً، أظهر الندم وعاد إلى الرجل معتذراً ومصلحاً هندامه وعمد إلى ترضيته بمبلغ نقدي.

انقضت سنتا العقوبة وفي الأيام الأخيرة كان قد بلغ اليقين بعدم رغبته في مواصلة التعلّم.

في السنتين اللتين صادق فيهما الشوارع والأزقة والمقاهي اكتشف الضياع وأحس أنه يقترب رويداً رويداً من الانحراف وتعاطي ما لا يحب، وأدرك أن الطريق ضاقت وأنها ستطبق جدرانها عليه.

في مكتب العمل شعر أنه أحقر من خنفساء. ومع أن الحقارة تتقارب في مستوياتها إلا أن هذا التشبيه يتطابق مع ما يشعر به.

كلّ يوم يتعرف إلى مجموعة من العاطلين. طابور طويل يجوب المرافق الحكومية والخاصة بحثاً عن مظلة تقيهم لهيب شمس الحياة وليس لهم من حلم يطيرون من خلاله.

– أنا خنفساء.

صدم موظف الاستقبال في مكتب العمل الموكل إليه استلام ملفات الراغبين في الحصول على وظيفة.

كان الموظف شاباً متفهماً أوضاع الشباب فأخذ في الإصغاء إلى فيصل، الذي تحرك واستند على المكتب المواجه معرفاً بنفسه باعتداد:

– أنا خنفساء.

أول الأمر استهجن الموظف ذلك التعريف، ومع معاودة ومداومة ذهاب فيصل إلى مكتب العمل غدا كل الموظفين يطلقون عليه لقب الخنفساء.

في إحدى المرات أعياه انتظار الموظف المكلّف بتحديد الجهة التي سيبعثه إليها، فلم يطق الانتظار وأحدث صخباً عالياً معترضاً على الحكومة، وبمجرد أن

تلفظ بكلمات عدة تكهرب المكان، وكأن كلماته أحدثت صعقاً كهربياً، فتسمّر الموظفون والمراجعون في أماكنهم ووقفوا صامتين حتى إنه أصيب بالعلّة نفسها فصمت معهم.

ذلك التعريض بالدولة جعل المدير العام يقف على رؤوس موظفيه في الصالة الكبرى.

– من الذي أحدث كل هذا الصخب؟

– ...

– ومن الذي يدّعي أنه خنفساء؟

احتدّ فيصل وتقدّم المراجعين:

– أنا.

واستدار بكتفه بحيث يكون في وضع يمكنه من مشاهدة الجميع، وبحركة مسرحية أشار إلى كل الراغبين في العمل:

– هؤلاء هم الخنافس. وأنا منهم.

من كان يسمع قول فيصل ربما طرأت على باله أن فصيلة الخنفساء لها ملايين الأنواع وتعيش في معظم البيئات وما جناحها الغمدي إلا صفة وخيمة إذ تعني أنها أجنحة محمية بالغطاء وتحت هذه الحماية تختبئ الحقيقة: إما أنها من غير أجنحة أو أن أجنحتها القشرية التصقت ولم تعد قادرةً على الطيران.

أعتقد أن فيصل لم يكن على وعي بهذه المعلومة العلمية، فلقب الخنفساء يستخدم شعبياً للتدليل على أن

الخنفساء حشرة مدفونة في القمائم ولا تظهر إلا ليلاً.

اتسق مع فكرته ورد: "نعم، الحياة بلا طيران مقبرة أو العيش مع هوام الأرض وحشراتها".

وعندما توثق من فكرته الشعبية والتفاصيل التي استند إليها ارتفع صوته:

– كما ترى، كلّ هؤلاء العاطلين أصدقائي وكلنا خنافس لا عمل ولا حلم ولا طيران.

صوته الجهوري انطفأ مع أول تهديد سمعه من المدير العام:

– عندما تجد نفسك خلف قضبان السجن ستعرف تماماً أنك خنفساء.

لدى سماع تلك الجملة غادر كل الراغبين في الحصول على عمل معتذرين ومؤملين العودة في الغد وانتظار معاملاتهم سواء أنجزت أم ما زالت متعثرة.

"الحياة فانية وعليك اختصار مكوثك فيها بما يعلي كلمة الله."

هذه كانت وصية شيخه عبد السلام المقري وكان يضعها أمام بصره ويومياً يرددها سراً.

قطع حبال الشك وتيقّن بأنه يبيع نفسه لله وللرسول، تمتم وكأنه يسمع على مسامع شيخه:

– ها أنا أخبّ حثيثاً نحو نهايتي.

أولى النصائح التي تقلّدها من شيخه عدم ترك العمل وإثبات الكفاءة فيه لكي يصل إلى الثقة المطلقة من رؤسائه. وكانت هذه النصيحة ضد رغبته، فبعد استقامته فُتحت له أبواب رزق عديدة وفرص لأعمال تدرّ عليه دخلاً مضاعفاً. ولم تتبين له نية شيخه وتوصيته بالبقاء في العمل.

اتسعت ذاكرته واستدعى أيام كان يبحث عن أي وظيفه تمنعه من الضياع. حينها اعتبر وظيفته الحالية هبةً سماوية هبطت عليه لتنقذه من ظلمة ضيق اليد وتلبسه أماناً من التسول أو السرقة.

اعتاد جمال الاستيقاظ المبكر مهما كانت ليلته السابقة حافلةً بالسهر. يغادر سريره صباحاً متجهاً إلى شارع الميناء بادئاً بالمرور إلى مكتبة الخطابي وشراء صحيفته اليومية وتناول إفطاره المكوّن من طبق فول بالزيت الحار وصحن شكشوكة وحولهما قرون من

الفلفل وحبتا ليمون وبصل، وينتهي فطوره بكأس من الحليب الممزوج بالزنجبيل، فاتحاً الجريدة على الصفحات الرياضية غير آبه ببقية الأخبار، يقرأ عما قيل عن الدوري المحلي وتحديداً عما يقال عن ناديه. في ذلك الصباح شغر إعلان صفحة كاملة من الصفحات الرياضية معلناً عن وجود وظائف حراسة أمنية خاصة في مصفاة جدة.

في ذلك الصباح المبكر كان الطرق على الباب الخارجي لمنزل بيت سليم مثيراً للإزعاج والحنق معاً مما جعل سليم يلعن الطارق ويتوعده بكسر جمجمته:

– أريد فيصل لأمر ضروري.

– لو كان هذا باب منزلكم أتفعل هذا؟

اعتذر جمال مبدياً حجته بأن الأمر في غاية الأهمية ويخص فيصل:

– لا يزال نائماً كبهيمة تنتظر العلف.

– هل أستطيع إيقاظه ياعم؟

– عليك به فالله يُسخِّر لكل دابة دابةً أخرى.

بعد أن كبر فيصل اقتطع له أبوه مساحة غرفة بمنافعها شيدت في مواجهة الباب الخارجي لتكون سكنه ومكاناً يجتمع فيه بأصحابه وإن كان هو ذاته نافراً من الجميع سوى صديقيه جمال وعمر.

لم يتشجع فيصل لذلك الإعلان مؤكداً أن جميع الإعلانات لا تأتي بخير، وظلّ جمال يجادله إلى أن اقتنع، خاصةً وأن المصفاة لا تبتعد كثيراً عن منزله

ويمكنه الذهاب إليها مشياً من غير الحاجة إلى مواصلات.

– بعض الأصدقاء كالذنوب التي تحملها معك.

شعر جمال ببعض المهانة عندما شبهه فيصل بالذنب، وزاد غيظه:

- أنت ذنب لكني أستغفر منك يومياً عشراً.

– سوف ترى إن كنتُ لك ذنباً أم مغفرة.

كلما تذكر فيصل تلك الكلمات فاضت عيناه بالدمع وأسرف في الدعاء لجمال بالمغفرة والقبول الحسن (كان هذا في بداية استقامته).

– يا صديقي، وجدتك عوناً لي في كل حياتي. حتى ما أنا عليه الآن فلك الفضل فيه.

تململ في فراشه وكلما أغمض عينيه جافاه النوم وألحت عليه صورها المتراكمة في مخيلته وتذكر سيلاً من الكلمات زرعها في مسامعها، وجذد الوعد الذي قطعه على نفسه بأن لا يقطعها من وصل أبداً.

قفز من مرقده مستغفراً فقفز معه وجهها ممسكاً بكل خلجة من كيانه.

كان المساء دامساً وإضاءات البيوت عاجزة عن أن تلتهم كل تلك الظلمة المنتشرة في الأزقة أو تهدي السالكين دروباً تبعدهم عن القاذورات المكدسة أو عن عواء الكلاب المفتشة عمّا تنهشه من غير أن يراها أحد.

"أوه، كم من كلب في داخلنا يمارس نهش أناسٍ من غير أن يراه أحد!"

عبرت تلك الخاطرة خياله معكّرةً تلك الفكرة التي استقرّ عزمه على أن يقوم بها هذه الليلة. جاهد بالاستغفار للإقلاع عمّا يمور في داخله، وكلما سكن للحظة عاودته موجات الحنين فلا يقدر على دفعها.

في الزقاق المطلّ على بيت فائز من الجانب الخلفي تعمّد فيصل كسر إضاءات مصابيح البيوت المجاورة وارتضى أن يكون الزقاق مظلماً طوال الأيام حتى اذا تم إصلاح مصباح أعاد كسره.

وبسبب العمل الذي انضمّ إليه فيصل كان من الصعب مواصلة السهر لأوقات متأخرة من الليل، لهذا اعتبر أن

صديقه جمال أدخله في مأزق إما الذهاب إلى النوم استعداداً للاستيقاظ مبكراً أو الذهاب إلى عشيقته.

بعد موت جمال ظل فيصل يحنّ إلى ذكرى مغامراته الليلية.

في هذه الليلة استيقظ قبل صلاة الفجر بوقتٍ طويل وخرج سالكاً الزقاق الخلفي لبيتهم. تبسّم حينما رأى مصابيح البيوت المطلّة على بيت فائز مضاءة وشعر بحنين جارف عندما رأى أن مصباح بيت البيشي لا يزال منطفئاً منذ ذلك العهد الذي توعّدا فيه بكسر بقية المصابيح المجاورة.

انحنى إلى الأرض متلمساً حصاةً وألقاها في المكان الذي كان يشعرها كعلامة بأنه إلى جوار الباب. استخفّ بالفكرة والعمل بها، وذهش عندما رأى الباب يُفتح ويدٌ تجذبه إلى داخل البيت، وبصوتٍ متآكل شوقاً ولهفةً:

– مضت سنة وكل ليلة وأنا انتظرك إما على الباب أو على السطح علّك تصعد إلى سطحكم.

أخذها بين أحضانه وغابا في ضمّة تساقط فيها الشوق والحنين واللهفة والعتاب والهجر... كانت الدنيا تخلع فستانها وتتزيّن بالثمار الدانية والأنهر...

كانت نجومها كاسرةً للغلظة التي اكتسبها مؤخراً، فغدا رأسه مفتوحاً لكل الأفكار والوساوس والمنكرات المحلّل منها والمحرّم.

تركا عيونهما تزاول السرقة لوجه كلٍّ منهما تزوّداً لأيام الغياب الطويلة. كانت أناملها تطوف بين ملاحمه

وتحدّدها بسبابتها.

– تعرف. بالذقن أصبحت أكثر وسامة!

وطلبت منه أمراً عجيباً: أن تأخذ شعيرات من ذقنه!

فاستسلم لطلبها فاختفت للحظات وعادت تحمل مقصّاً صغيراً ورسالةً مطويةً بإتقان، جذبت رأسه برفق حتى دنا محذّراً:

– إياك أن تقصيه!

فأخذت تضحك ضحكةً طويلة بأن ذلك الجمال لم يزل طفلاً يحبو.

وتناول الرسالة المطوية بعناية فعرف أنها رسالته التي سلّمها إياها في أخر لقاء، فتعثرت الكلمات:

– كان عليّ أن أردّ على رسالتك ولكنك مضيت ولم تلتفت إلي، أغرتك حياتك الجديدة. الآن أقول لك: أنا لا أعرف شيئاً. الشيء الذي أعرفه هو أني أحبك، فلا تهجرني.

وكأن الكلمات مهدّمة لا تصل إلى غايتها فأرادت تأكيد قصدها:

– سوف أظل في انتظارك كل العمر...

كانت كلماتها الدامعة تذيب القلب الصلد، فاحتواها بين ذراعيه حتى سكنت، وبصوتٍ خدر همس لها:

– عليّ أن أتحرك فموعد الصلاة قد حان.

تعلّقت برقبته تطلق عصافير غمزتيها صوبه:

– تعلم أنني يومياً وفي صلاة الجهر أظلّ مصغيةً إلى تلاوتك للقرآن وأنا أكاد أموت لهفةً عليك.

ودّعته بعد أن سمّرت عينيها على فتحة الباب الضيقة ودفعته من ظهره وهي ممسكةٌ بيده تلثمها وتهمس:

– لا تنسَ؛ فأنا أنتظرك هنا أو على السطح.

وما إن وقف في الخارج حتى سمع صوت معالجة مفتاح بابٍ صدئ ليطلّ من فرجته صالح البكري:

– ما شاء الله! أنا محظوظ هذا الصباح. خذني معك يا شيخ.

ساوره شك بأن صالحاً لمحه وأراد التيقّن من ذلك فافتعل أقوالاً تسبر غوره وكل الردود كانت تنبئ بأنه لم يلحظ شيئاً.

وعلى بوابة المسجد اعتذر من صالح البكري لكي يذهب إلى دورة المياه لأنه أحدث حدثاً وعليه أن يعيد وضوءه. أغاظته كثيراً ضحكة البكري وداهمه خاطر بأنه رآه، بينما مضى صالح يكركر:

– كلنا تلعب بنا الريح!

ما إن أنهى وضوءه حتى ارتفع صوت المؤذن لإقامة الصلاة، فتقدم فيصل ليؤمّ المصلين وانطلق صوته عذباً رقراقاً أسكن في آذان السامعين خشوعاً وسكينة، وكلما جوّد آيةً تمنى أن لا يتوقف بينما كانت مخيلته تسرف في جلب صورتها وحركاتها وابتساماتها... كان جازماً أنها الآن تصغي إليه.

في اليوم التالي لتفجيرات ١١ سبتمبر احتفل فيصل أيما احتفال وشعر أن البهجة تحتوي كل مسامات جسده.

دُعي لإلقاء محاضرة في مسجد التقوى وبمجرّد تسلّمه الميكرفون استفتح كلامه بقراءة:

{بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (التوبة: ١– ٥).

لقد تألّب علينا المشركون والكفار وصدّوا عن سبيله فلهم الخزي والذلّ أينما كانوا.

ولقد نصر الله فئةً من المؤمنين بإذلال أكبر دولةٍ على الأرض: {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}.

ولكي أبسط لكم الحادثة وأين وقعت نقول والله المستعان:

– وقعت غزوتنا المباركة...

توقّف مبتسماً ومردّداً:

– نعم فأنا أسميها غزوة، ولله الحمد أن ظفرنا بأعداء الله في قلب بلادهم... نعم في القلب، فالغزوة وقعت في مانهاتن أشهر أحياء مدينة نيويورك التي تقع في جزيرة بوسط المدينة تعتبر مصباً لنهر هدسون، وفي هذا الموقع توجد أضخم وأفخم الفنادق والمطاعم والمنازل والشركات ومبنى البلدية ومركز العمدة ومصالح أميركية لا حصر لها. في هذا المكان الذي حدّده تسعة عشر مؤمناً موقعاً لهذه الغزوة وتفجير مركزَي التجارة العالمي يوم أمس.

ضجّ المجتمعون بالتكبير:

– الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر...

ارتشف فيصل قليلاً من الماء ورفع صوته محاولاً إحداث يقظة في الفهم:

– هذه الحادثة تُعدُّ إعجازاً قرآنياً، فمنذ أربعة عشر قرناً والآية تتلى وكنا نمرّ بها لاهين حتى أراد الله أن يظهر معجزته، فتعالوا نقرأ قوله تعالى:

{لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ

وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (التوبة: ١١٠-١١١).

أحبائي وقرة عيني،

أحمد الله أنْ مكّننا من مشاهدة معجزة من معجزاته وأنه شفى قلوباً مؤمنة برؤية أكبر دولة في العالم ذليلةً كسيرةً لم تحمها أسلحتها وأجهزتها ومراصدها وتقنياتها من أن تُذلّ من خلال {فِئَةٍ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ}.

أحبائي وقرة عيني،

قارنوا بين الآية وما حدث في الواقع، ولنبسطها أقول: إن أدوار مركز التجارة العالمي ١١٠ أدوار ورقم الآية ١١٠، وإن ترتيب السورة في القرآن التاسع والأحداث وقعت في الشهر التاسع، وإن الآية في الجزء الحادي عشر والأحداث وقعت في اليوم الحادي عشر، والآية تتحدث عن البنيان... فسبحان الله تعالى!

هاج المسجد بالتكبير والتهليل ممتدحين مقدرة فيصل على الإتيان بالآية والتدليل على المعجزة.

ومع المداخلات وقف الشيخ عمر مادحاً وذاكراً المحاضر بجمل عديدة واستأذن الحضور بإظهار ملابسات الحادثة في فهمم آيات السيف لكنه أرجأها ليبدأ بالحديث عن الآيتين اللتين جاءتا في سورة التوبة ورافضاً مقولة أنهما إعجاز قرآني وشارحاً أنّ جلّ الكتب تشير إلى أن أسباب نزولهما كان في المنافقين الذين أنشأوا مسجد ضرار وأرادوا به إشغال المسلمين وتفريق

كلمتهم ووحدتهم، ففضح الله أمرهم بهاتين الآيتين الدالتين إلى أن الحدث حدث زمني موقت لا يمكن سحبه على الوقت الراهن، وأن الشيخ فيصل سلك تفسيراً باطنياً وأسقط عليه تفسيره الخاص. ثم إن الاستدلال بموافقة عدد الشهر من السنة الإفرنجية هو خلاف ما جاءت به الشريعة في أحكامها من اعتبار السنة القمرية. كما أن مركز التجارة العالمي ليس كما ذكر أن عدد طوابقه ١١٠، فالقائمون على المركز والذين تابعوا بناءه نفوا ذلك.

كان عمر لا يزال راغباً في إيضاح أن الشيخ فيصل اتكأ على تشابه بسيط وهذا ما تنقضه القاعدة الأصولية من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب...

كان افتتان الحضور بما قاله فيصل يفوق أي ملاحظة أو اعتراض. وقبل أن يواصل الشيخ عمر رأيه في آية السيف وأنها أية منسوخة عند جمهور الفقهاء كان تمهيده وتوطئته بأن شيخ الإسلام بن تيمة رفض مقاتلة المدنيين وأن قتل غير المقاتل حرام، فـ"من الله النص ومن العبد الفهم". لم يكن حديثه مرغوباً فيه وقبل أن يواصل تقدم شخصان كانا يتخطيان الصفوف مطالبين فيصل بمصاحبتهما إلى خارج المسجد.

اختلطت أصوات الحضور بضجيج وصخب من غير أن يعرفوا سبباً لذلك الاستدعاء.

تعكّر النفس مدعاةً لأن تبذل مواقع الأشياء وتكسبنا مزاجاً معتلاً، وكل الأخطاء تتوالد في لحظة غضب. الكارثة عندما نظن أن أفعالنا خرجت من نفس سليمة لم يخالطها كدر.

يوم مقتل الزرقاوي كان فيصل حزيناً للغاية.

بدأ صباحه بمتابعة القنوات الإخبارية ومساهماً في العديد من المنتديات وغرف "البال تك"، يستخدم اسماً مستعاراً تشبّه فيه بمهنة فائز (السياف). وبينما هو في حوار ثنائي مع عضو يدعى كشكول، الذي أفرط في الوعيد والتنكيل باللبراليين والعلمانيين في ظل دولة الإسلام التي أطل زمنها، مقسماً أن الزمان أهلّ، وتوعّد اللبراليين: "الزمان أزف فتلمسوا رقباكم"، فطن فيصل لخطورة الانفلات والرضوخ لحالة الغضب فنبّهه بجملة:

– لا تغضب.

كانت هذه الوصية قفل باب الاستزادة بما يعلم، واضعاً نصب عينيه المخاطرة في إلقاء أسرار لا يجب التفوّه بها مع أمل أن يعجل الله نصرة المسلمين.

هذا التفاؤل المخضرّ الذي نام عليه استيقظ ولم يتوقع أن يكون يومه محبطاً منذ ساعاته الأولى.

ذلك الصباح مكّن جورج بوش (الابن) من مواصلة قهقهاته التي لم تنضب منذ أن حمل على البلاد الإسلامية والمسلمين حرباً لا هوادة فيها، ومع كل

خطوة لجيشه ثمة نفس تُزهق وأم تحزن وامرأة تترمّل وأطفال يتيتمون ولا تزال خطواته تعبر آلاف الليالي ولم يوقفها أحد.

هكذا خاطب نفسه ضامر النية على أن تكون حرب أميركا على المسلمين مادةً لخطبته القادمة.

واستعاد اللحظة... لحظة سماعه الخبر...

كان صباحاً مزهراً انتشى فيه العالم الأوروبي ومكّن رجلهم من إعلان سعادته. ففي ذلك الصباح أطلّ الرئيس العراقي معلناً عن مقتل الزرقاوي من خلال غارة أميركية. يومها لم تكفِ فيصل كل اللعنات والشتائم التي ألقاها على نوري المالكي. فقد فُتن بالزرقاوي عندما شاهد عرضه لمشهد جزّ عنق الأميركي يوجين أرمسترونغ؛ ذلك المشهد أعاد فيصل مشاهدته عشرات المرات وفي كل مشاهدة يُسبغ على الزرقاوي الصفات العظيمة التي مكّنته من إظهار بسالته للعالم أجمع وتمريغ وجه أميركا وتهديد مواطنيها ورؤسائها.

وقد ساهم في نشر ذلك المقطع وتبزع بإيصاله لمن لم يكن على اتصال بمواقع التواصل الاجتماعي. كثيراً ما حمل جهازه وعرض مشهد الجزّ وهو يتفنّن بتثبيت الصورة عند إشهار السكين وجزّ عنق المواطن الأميركي، ولا ينسى صيحته التي ألقاها على مسامع من عرض عليهم المشهد:

– يا زرقاوي، اذبح كل الكفرة والمنافقين... اذبح فنحن من خلفك الذبّاحون.

ثم يقرأ {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ}.

وجد فيصل أن أكبر حسرة شعر بها يوم مقتل الزرقاوي إذ كان موعوداً من أحد أعضاء البال تك أن يجمعه بالزرقاوي حالما يصل إلى العراق. وزادت حسرته أن في موت الزرقاوي تأجيلٌ لمغادرته إلى العراق، وأيضاً أخّر حلم الالتقاء ببعض الأصحاب.

فيصل يُثمّن كثيراً قدرة الزرقاوي، وبسبب ذلك التقدير سعى مبكراً للانضمام إلى تنظيم التوحيد والجهاد، وقد تمّ ترشيحه من قبل شيخه أبي الدرداء الذي كان يقود خليّةً داخليةً نائمة. فكان كلما استعجله أن يسمح له بمغادرة البلد يُهدّئه:

– الحمد لله، استطاع إخواننا الدعاة التمهيد لخطواتنا المستقبلية، وجهادك هنا أفضل.

في مواقع مختلفة أظهر فيها استغرابه مستفسراً:

– لماذا هو بالذات لم يتم إيصاله إلى أرض المعركة؟

وفي كل مرة يجد جواباً سريعاً: أن أرض المعركة في كل مكان ما دام المجاهدون يسعون لإعلاء كلمة الله.

وعندما ألحّ عازماً التوجّه إلى العراق، جذبه شيخه:

– إعلم أن فتح الجزيرة العربية هو غايتنا فلا تذهب أمانيك حسرات.

وربت على كتفيه مستحسناً سماعه وإطاعته في ما يأمره به:

– تأكّد أن جهادك هنا فيه خيرٌ كثير.

كظم سره لتلقّيه الثناء بينما في أعماقه كان يردّد: ما كنت أفعل شيئاً إلا في سبيل الله.

فاتح شيخه أبا الدرداء بألمٍ يعتصر قلبه كلّما فكّر في ما تنطوي عليه جوانحه، وعندما وجد أذناً صاغية استطاع شرح فكرته بكلمات قصيرة ومبتورة أنهاها بقوله:

– أظن، يا شيخي، أنني لم أعشقل منذ وقتٍ طويل ويداهمني هاجس بأن الطريق التي أسلكها ترضي السلطات.

خبطه الشيخ أبو الدرداء على ركبته:

– احمد الله وتمنّ السلامة يا شيخ فيصل.

لا يتذكّر عن الاعتقالات سوى تلك المرة التي أظهر فيها فرحاً عارماً بإسقاط برجي التجارة الدولية فتمّ اعتقاله لفترة وجيزة وخرج بعد أن وقّع تعهّداً بالالتزام بما تسنّه إدارة المساجد.

– منذ مقتل الزرقاوي ليس في ذمتي بيعة.

انضمّ مبكراً لتنظيم التوحيد والجهاد الذي ترأسه في بادئ الأمر أبو محمد المقدسي، وأخذ على نفسه عهداً أن يكون ثباته في أي تنظيم مقترناً بوجود الزرقاوي، فأينما حلّ انتقل معه، لشعوره أنّ ولاءه للزرقاوي يمنحه استقراراً ويبقي على نفسيته متزنة. ولشدة تعلّقه به أراد تسمية نفسه "أبو مصعب" إلا أن ثبات أنشطته "النثيّة" اقترن باسم السيّاف، ومع ذلك اقتفى أثر الزرقاوي بإضافة اسم مدينته إلى كنيته.

أوقات يداهمه شعورٌ بالتيه فيلجأ إلى استذكار سيرة المجاهدين الأفذاذ الذين قضوا نحبهم في جبال الأفغان أو مرتفعات الشيشان أو في مقاتلة أميركا على أرض العراق أو الموت في أدغال أفريقيا. كان رأسه يختزن متاهات عجز عن الخروج منها وخضع بيقين أن الزمن كفيل بإظهار ما لا يراه الآن.

عمل من وقت مبكر على جمع المال من أجل سنة العراق وتدبّر وسائل بدائية لإيصال الهبات المالية والعينية، ومن خلال ياسمينة تعددت منافذ الحصول على الأموال.

لم يكن يفرغ من عمل حتى يتسنّم منصباً جديداً. شعر أن التنظيم يكافئه حين أسند إليه إدارة الأفراد المنتمين إلى القاعدة في الحجاز وأضمر حمل لواء

مناصرة التحركات الجهادية بينما كان يتحرك في المحافل والندوات المحلية بغطاء الدعوة ولا شيء غير الدعوة.

يتلقى أوامره من شخص يدعى أبو الدرداء المدني. لم يكن يعرف شخصاً بعينه (هذا في بداية الأمر)، فكل الشخصيات التي يتعامل معها تتحرك بكنية، ومن أجل التميز لم يكن أحد أن يسمى بكنية الآخر.

في غرفة الباك توك كان يسمي نفسه السياف ثم أضاف اسم مدينته، ففدا يعرف بالسياف الجداوي.

علم أن عليه أن ينشط في استقطاب المجاهدين الشباب والاكتفاء بهذا الدور بعد أن يخبر من يعطيه الأوامر بكيفية التواصل مع المنضمين الجدد، إلا أن نجاح ياسمينة منحه ميزةً إضافية بأن يكون جامع الأموال وضخها للمجاهدين.

تكاثر الجماعة يتمّ على الطريقة العنقودية حيث لا يعرف الناشط في الجماعة إلا شخصين: من تتلقى منه الأوامر ومن تلقي عليه الأوامر.

وقد استطاع اختراق ذلك التسلسل من خلال شيخه أبي الدرداء الذي أسز إليه بجماعتين إحداهما تعلوه درجةً والأخرى يعلوها درجة.

اكتسب روح المسؤول عندما تلقى وعداً في أن يصبح أميراً لمجاهدي الحجاز وقد طلب منه تكوين الجماعة وإعلان المبايعة، ولشدة سروره فاته تحديد أو معرفة المبايعة لمن؟

ظلّ هذا السؤال ينخر رأسه ولم يهدأ حتى وقف أمام شيخه سائلاً:

– أطلب البيعة لمن؟

تريّث الشيخ أبو الدرداء واقترب منه هامساً:

– سوف يظهر أمير المؤمنين خلال الأيام القادم وسيكون ظهوره في الشام أو في العراق، فاكتم السرّ.

حدث هذا في وقتٍ مبكر. الآن يصف تلك الفترة بالساذجة عندما كان يسلم آراءه وأفكاره لشيخه ولم يدر بخلده أن الشيخ أبا الدرداء كان يعدّه لعملية انتحارية سقيمة تنتهي بمقتل جندي أو جنديين، وأوصاه أن يكون مستعداً للبس الحزام الناسف في أي لحظة يتم فيها تحديد تنفيذ العملية الانتحارية.

أعرض عن فكرة شيخه حين طرأت بباله خطة أكثر جدوى وإيلاماً.

في زيارة خاطفة تبادل فيها الكلمات الغامضة مع الشيخ أبي الدرداء وانتهت بلقاء شخصية تفوق كليهما درجةً تعرّف إليه بكنية أبي البراء المصري:

– يا شيخ، هذا هو السياف الجداوي ولديه فكرة وأظن أنها فكرة عظيمة، ولم نشأ أن نقطع بأمر من غير تنسيق.

كان اللقاء داخل مسجد الوفاق، وبعد انتهاء الصلاة اقتعد الشيخ أبو البراء مكاناً قصياً من مؤخرة المسجد، مستنداً إلى أحد الأعمدة، فاتحاً صفحات القرآن وعيناه تركضان في كل الأمكنة وتتفحصان الوجوه بريبة،

ويزداد تركيزه على وجوه الغرباء، ويظهر ذلك التركيز بجلاء:

– ما الذي تحمله يا سياف؟

شعر فيصل بارتباك مفاجئ وتبع حركة وأقوال شيخه أبي الدرداء بإظهار التعظيم والتبجيل له:

– يا شيخ، ظللت أعمل في مصفاة جدة سنوات وأعرف كلّ تفاصيلها وعملية واحدة فيها تحرق جدة بأكملها.

بُهت الشيخ وظلّ جامداً تجري عيناه في كل مكان، وبسرعة خاطفة أنهى الحوار، ومن غير أن يصافح محاوريه نهض متجهاً للخروج من الباب الرئيس.

– انتظر التوجيهات.

موت جمال المفاجئ دفع بأمه وصديقه فيصل للإنابة إلى الله عما سلف من حياتهما.

ومنذ أن صعدت روح جمال إلى بارئها توجه فيصل إلى المسجد تائباً مستغفراً ومتحرراً من أفعال كثيرة كان يقترفها من غير الشعور بذنب أو لوم. وعندما وجد نفسه سائراً في دروب الهداية رغب في جذب الذين يحبهم للسير في نفس الطريق، ولم تكن دعوته مقبولة في بيتهم. فبعد تحطيم وسائل وأدوات الشيطان وقف الجميع ضده، وقد همّ بمغادرة المنزل إلا أن الشيخ مقبول المتحمي أوصاه بالبقاء علّ الله يشرح صدر أبويه.

– "وصاحبهما في الدنيا معروفا".

في قراره نفسه لم يكن راغباً في دعوة أبيه إلى الخير، فثمة غصة تحوم في أعماقه يتمنى معها أن يظل أبوه في حالة حرج ولم يتمنى له أبداً أن يصل إلى حالة الشعور براحة البال.

في آخر مشادة بينهما طفر ضيق فيصل، ومن غير شعور أمسك بترقوة أبيه:

– أنسيت ما فعلت في شبابك؟

كانت الحركة صادمة جداً، فلم يتمالك سليم إلا أن صفعه مطالباً إياه بمغادرة المنزل. في تلك الفترة احتجب كثيراً وانتقل إلى منزل يؤمه زوار الشيخ أبي

البراء المصري. فكان الشيخ مقبول يسأله – كلما التقيا – عن أحوال أبويه فيردّ رداً مقتضباً:

– ما زالا في غيّهما.

يُعدّ أداء أبويه الفروض من صلاة وصوم وزكاة نفاقاً اجتماعياً، وما بُني على باطل فهو باطل، ويحمل لكلٍّ منهما أرشيفاً من الملاحظات التي جمعها من حياته معهما. كان يعيب على أمه الانحراف العقدي الذي تمارسه في حياتها من غير غضاضة، فقد نصحها مراراً بالمحافظة على ركائز الحب والخوف والرجاء لكمال العبودية التامة، وكلما ناصحها تجاهلت نصائحه. أما أبوه فقد ضرب عنه صفحاً ليقينٍ جازم بأنه من أهل النار، تكفيه التهمة التي ألصقها بقطوف (زوجة فائز البيشي) لكي توصله إلى قعر جهنم. ولم يشأ تمديد تواصله مع بقية إخوته بعد فشله في إزالة أدوات الشيطان الجاذبة للفسق والفجور.

ومنذ انطلاق خطبه ومحاضراته سعى إلى نشر الخير في قلوب من لا تربطه به صلة قرابة.

مداومة زيارة ياسمينة بزّاً بصداقة جمال جعلته يطمع في أجرٍ مديد وخيرٍ مما طلعت عليه الشمس:

– يا خالة، تعلمين درجة قربي من جمال وقد أفضى إلى مصيره وخشيتي أن نلحق به في ذلك الطريق.

وسائل الجذب والترغيب أوصلت ياسمينة إلى يقين أن ابنها مات كافراً أو على أقل درجة من التخفيف أنه مات على ارتكاب عدة كبائر. فتواطأ معها على صياغة

علاقة تمكّنهما من الالتقاء بعيداً عن اللوم والتقريع، فاستنبطا حكماً فقهياً بُني على تدليس ومجافياً للحقيقة فعلاه وهما يعرفان أنهما يكذبان مستندين إلى فتوى الشيخ أبي البراء بأنه يجوز للمسلم الكذب لخدمة الدين. هذه الفتوى جعلتهما يبحثان عن كذبة تمكّنهما من الالتقاء من غير لوم، ولم يجدا أفضل من الادعاء بأنها أمه بالرضاع.

وجد في خالته ياسمينة الدعم والمؤازرة للسير في دروب الخير، ومع ترددها معه في خطب الجمعة وحضور المحاضرات أحدث ذلك فضولاً لدى من يتابع حضور خطبه:

– من هي المرأة التي تلازمك أينما ذهبت؟

– أم صديقي.

كان اختراق الجواب لمسامع الشيخ مقبول المتحمي كالصاعقة التي تشطر من تصيبه:

– اتّقِ الله! أم صديقك وتسايرك في كل مكان! هي امرأة أجنبية وتحلّ لك.

تنبّه فيصل للمأزق الذي وقع فيه، ولكي لا يفقد ثقة شيخه سارع بالقول:

– هي أمي بالرضاع.

تلك العلاقة الوهمية الكاذبة سذت فُرَجاً وقرّبت فرصاً صعبة لم يكن ليبلغها من غير وجود ذلك الغطاء.

– تعلمين، يا أماه، أن نساء المسلمين في ظلالٍ مبين ولا يوجد من يناصحهن أو يرشدهن، وأرى لو أنك

تقومين بهذا الدور لربما كان أجرك عظيماً.

أبدت استحساناً بمجرد سماعها حديثه مظهرةً استعداداً منقطع النظير، وداومت على محاضراته، ولكي يثق في أدائها مع النسوة كان يحاضر لها منفردةً ويوصيها بحفظ بعض الشواهد من القرآن والسنة مع التزوّد بقصص الترهيب ليوم الحساب وعذاب القبر.

وجود ياسمينة فتح له أبواباً من الثقة لدى مشايخه وعدّوا فعلته إنجازاً في دروب الخير. وتسارعت إنجازات ياسمينة فلم تخيّب ظنه، فقد خطت خطوات واسعة في الدعوة فشاع ذكرها في مجالس النساء.

في صباحٍ رائق كان الزمن يدفع بوقت الضحى إلى مشارف مرقد فيصل لينبّهه إلى حلول وقت صلاة الضحى، فنهض نشطاً وأدّى ست ركعات وكانت به رغبة لإتمام ثماني ركعات اقتداءً بالسنة لولا مشاغلة الجوال له برنين متواصل تعلن شاشته أن المتصل هو الشيخ أبو الدرداء:

– وعليكم السلام يا شيخ.

– أبشرك... تمّ اختيارك.

– لأجل ماذا؟

حشرجة الشيخ نبّهته إلى أن هناك أمراً لا يجب أن يقال عبر مكالمة وأكّد هذا نقل الحديث إلى اتجاه أخر:

– ألم تذهب اليوم إلى عملك؟

قرار فيصل بترك عمله والتفرغ للدعوة، حتى تلك الأمنية تمّ الاعتراض عليها وتلقّى توجيهاً بالبقاء في

عمله.

– شعرت بوعكة فلم أذهب.

– بعد ساعة أو ساعتين سوف أمرّ عليك في البيت فلا تنتقل.

داهمت الاحتمالات مخيّلة فيصل، فما الذي يحمله الشيخ أبو الدرداء من بشارة؟ هل سُمح له بالجهاد في بلاد ما بين النهرين؟ أم تمّ تكليفه بمهمة في الداخل؟... كانت الأسئلة متزاحمة لكنه لم يكن يتوقع أن تكون البشارة بضمّ ياسمينة إلى الخلية السرية.

طرق الباب حاملاً البشارة إليها، فكانت الفرحة الغامرة تتدفق في قلب ياسمينة ولم تجد خيراً من سجود الشكر. كانت المهمة دقيقة وسرية للغاية، ومنذ تلك اللحظة عُهد إليه وإلى أمه بالرضاع جمع التبرعات للمجاهدين وإيصالها لأبي البراء المصري.

كانت ياسمينة أكثر توفيقاً، فقد فُتحت لها خزائن النساء وتمّ تزويدها بالذهب والمجوهرات وكل نفيس.

الحياة اتزان، وحين تفقد اتزانك تكون خارج الطبيعة.

من غير اتزان ستتساقط أطرافك مجتمعةً وتغدو كومة لحم غير صالحة لأي شيء حتى للاستهلاك.

الاتزان حياة.

ومن الضرورة تحديد الجهة التي تتموضع فيها لكون ذلك من الاتزان، فمن غير ذلك التحديد لا تعرف أين رأسك.

طافت هذه الخبرات الحياتية في بال فيصل متأخراً جداً:

– الضياع صورة من صور عدم الاتزان، ومن لا هدف له يبتلعه المجهول.

في اللحظة المتأرجحة كانت مخيلة فيصل مشتتة كخيوط كرة من صوف تمّ تمريرها على حزمة أشواك. ولم يكن قادراً على التأسف، فكل الأشياء غدت خلفه وهو غير قادر على استدراك ما حدث.

– الآن لا أعرف هل قربت خطواتي من القبر أم إلى السجن وتغدو الأمنية الثالثة بعيدة المنال.

الزمن يغدو كمخلّفات السوق عندما تتجاوزه. كل اللحظات التي عملنا فيها غدت جزءاً من نفايات مهولة. نعم كان ثمرة تلك الأعمال الإنجاز ولحظة ظفر صغيرة، لكن المقارنة بين صغر لحظة الظفر أمام الكم المهول من النفايات تكون حسرةً كبيرة.

الفرح الذي نتقاضاه ثمنٌ بخس حيال عمرٍ يمضي وليس على جذع شجرته سوى غصنٍ محترق.

كل النفايات المتناثرة في صدر فيصل ومخيلته لم يعد قادراً على فرزها وتصنيف هياكلها ليقوم بردمها.

التمني هو حالة من الفقد ننقاد إليها كلحظة العجز المماثلة للاستحالة فنطلقها على هيئة أمنية علّنا نسارع بإرسالها إلى النفايات المتناثرة في أعماقنا، وللأسف هناك لا يوجد عامل نظافة يردم كل مخلفاتنا فتبقى متناثرةً لتصيبنا بضيق التنفس.

وقمامة الأيام هي التي تجعلنا نتقافز داخل أنفسنا كي لا نلوّث اللحظة التي نسير فيها.

هذه الجمل حاول فيصل صياغتها تشبهاً بعمر علّه يستطيع سبر أغوار اللغة ودلالاتها. وعندما أعاد قراءتها خجل من استخدامها في إحدى خطبه، ومع ذلك أبقاها ضمن مدوّنته.

تذكّر فيصل إصرار شيخه وتوصيته بالبقاء في العمل والمحافظة عليه.

– لقد تمّ اختيارك!

حمل فيصل هذه البشارة إلى كثيرٍ من الشباب التواقين للجهاد، ومع مغادرة كل شاب زُشّح للانتقال إلى بلاد الرافدين تكون خدمات فيصل سابقة لأي تحرك، تنسيقاً مع بعض المشايخ والتأمين على خطوات الترحيل بدءاً باجتياز الحدود ومحطات الوصول وتحديد الشخصيات الموكلين نقل الشباب إلى داخل

المخيمات في العمق العراقي أو السوري، وتعاطف مع كل مجاهد يشق طريقه إلى نيل الشهادة والتوسط لدى مشايخه بتخصيص مساعدة مالية تمكّن كل شاب من اجتياز بعض العقبات الصغيرة في أرض المعركة أو في الطريق إليها.

قام فيصل بالعديد من الأدوار إلا أنه وصل إلى الملل من تأدية أعمال يظن أنه الأقدر على الإتيان بما يفوق عقلية المشايخ الداعمين لفتح نوافذ الجهاد ودفع المجاهدين لنيل النصر أو الشهادة.

– الحياة اختيار وليست انقياداً.

هذا ما طرأ في بال فيصل وانساق لشعوره بالغبن مما يحدث له.

عندما لا تتواجد في ضمير راسم الخارطة تكون مجبراً على التنفيذ من غير أن تحقق لذاتك حق الاختيار، فهرمية الأمر العسكري تتدرج حتى لو كان منفّذ الخطة غير ملمّ بالأبعاد أو ماهية العمل الذي يؤدّيه، فالأهم مواصلة الأوامر هبوطها من الأعلى إلى الأسفل.

"ها أنا أمثل المحطة الأخيرة للأوامر."

بقيت رغبة فيصل تحوم في أعماقه بالانتقال إلى العراق أو سوريا. كانت هذه الرغبة تتأرجح في مداها بين الانخفاض والارتقاء، وقد وصلت الى الحضيض في ذلك الصبح الذي أعلن فيه عن مقتل أبي مصعب الزرقاوي.

كثيرٌ من الأفكار التي ينادي بها أو يمرّرها إلى المتعاطفين مع المجاهدين لم يكن لديه دراية كافية بها، فأخذ يتلفس الآراء والأفكار التي يسمع بها. في هذه الأثناء كان يحمل وصيةً في غاية الأهمية كما بَلَّغ بها:

"احرص على عدم قراءة أفكار وآراء العلمانيين والليبراليين فهم مسخرون لفتّ عضد الأمة من خلال أفكار تفسد العقيدة والمجتمع."

ووجد أن تلك النصيحة تعفيه من قراءة كلام لا يعرف دلالاته وتسحب فهمه إلى دوائر متشابكة وتدخله إلى متاهة عدم الفهم.

في البدء ثابر على حضور الدروس التي يلقيها مشايخ توزعوا على المساجد، وكانت انتقالاته بين الحلقات سريعة حتى اطمئن، ووجد ما ينجذب إليه من خلال محاضرات الشيخ سعد بن زرّ فنشط على المداومة وتسجيل المحاضرات واستعادتها ليتقوّى في مواجهة الآراء المثبطة. وشكا لشيخه أبي الدرداء أن كل ما يُكتب من قِبل علماء السلطة يشوّش عليه قناعاته، فأمدّه بروابط لمتابعة كل ما يكتبه أبو محمد المقدسي ومن هناك تعرّف إلى روابط أخرى للسيد الفضل وأبي قتادة الفلسطيني وقرأ وسمع جميع رسائل أسامة بن لادن وتسجيلاته.

كان يسمع عن الاعتقالات التي تنفّذها وزارة الداخلية تحت شعار الهجمات الاستباقية فيظهر امتعاضاً لا يعرف كيف يبدّده حتى إن الشتائم التي يحملها في

رأسه نفدت، فلجأ إلى النت بحثاً عما يطفئ به سخطه. فتنقل بين الغرف ومتابعة علماء الساحات حتى استقرّ به المقام في غرفة الأنصار، ومن هناك ثبتت مشاركاته الساخطة اسم السيّاف الجداوي معلناً أن كتاباته ما هي إلاّ صدعٌ بالحق.

"كنت أتمنى جزّ رأس حمد التركي."

في سبيل هذه الأمنية تكبّد مشقة السفر إلى الدمّام وربض في أحد فنادقها أربع ليالٍ وثلاثة أيام يبدأ نهاره بالسؤال عن منزل الكاتب حمد التركي وينهيه في مقهى شعبي يقدم أكلة مظبى أغراه بها الشيخ أبو صفوان الذي علم بوجوده من خلال غرفة الأنصار.

لم يكن بحاجة للتوجّس الذي ظهر عليه، فاستلّ حذره، ولم يكن قد بلغ مقرّ جريدة **اليوم** سائلاً عن الكاتب ومنزله، لكن ما إن طرأت بباله تلك الفكرة المجنونة التي صارح بها الشيخين أبي الدرداء وأبي البراء حتى عاد إلى الحذر وبالغ في التخفّي وتعمّد عدم الانضباط في الموعد الذي التزم به مع صديقه المفترض. وبعد عدة مكالمات كان خلالها يتخفّى ليحزر هل ثمة عيون تتابع خطواته، وفكّر أن يكون صديقه هذا مرسل من رجالات المباحث، هدأ قليلاً عندما فكّر أن لا أحد يعلم بنيّته أو بما أضمره، إلا أنه كان شديد الحرص على الابتعاد عن مواطن الشبهة.

ودخل إلى دائرة التوجّس مرةً أخرى حينما أعلن عن مشروعه على مسامع أبي البراء المصري فشعر أن الجدران والأسطح والشوارع والسيارات تتحدث عن

فناء جدة، وأن ذلك الحريق المهول قد أزال المدينة بأكملها، وتخيل سماع الهتافات التي ستطلق حامدةً لذلك الشهيد نصر الإسلام بإزالة مدينة فاسقة من الوجود.

كان يخطط للخراب في كل موقع يضع فيه قدمه، وبعد ظهوره في تلك الليلة الموعودة التي أرهق فيها مضيفه، كانت كثافة الندى تكتنف المقهى فبدا أن الجو يتآمر عليه ويتهيأ للانقضاض على جسده المنهك الذي لم يمنحه ساعةً من استرخاء. أحس أن صديقه الافتراضي خالٍ من المشاكل كدابّة خرجت تأكل من خشاش الأرض حتى يمتلئ بطنها وتنقلب على ظهرها تشخر وتحلم بأمنياتٍ خنفسائية.

ذلك الصديق طوى الثلاثين من عمره، ذو وجهٍ ناتئ، وعينين متسعتين أبقتا له ملاحة الوجه وكشفتا فساد جسده، وأطرافٍ قصيرة لا تفي بالغرض. كانت بدانته فضيحة توجب عليه مداراتها. لسانه وحده بقي رشيقاً في لعن الدولة ذهاباً وإياباً. هذا الإسهاب الراكض في دروب الشتائم جعل فيصل يحتاط لنفسه ذاكراً محاسن ولاة الأمر ومسبغاً عليهم كثيراً من النعوت التي لا يقولها أيّ حيادي، فانتقل التوجّس إلى قلب ذلك المفرط جداً:

– لم أظنك بهذه الرخاوة، فما تقوله في الغرفة يشير إلى أنك فدائي لا يُشقّ له غبار.

– وما سمعته منك اليوم يجعلني متواضعاً في تقييم سلاطة لسانك ورشاقته.

كل منهما عزف عن الآخر، فأكملا وجبة العشاء صامتين بينما كانت العيون تحرّض بعضها بعضاً لتكتشف ما يفعله الجليس المقابل. سارع الرجل الثلاثيني إلى دورة المياه معلناً أنه بحاجة إلى قالب صابون لكي يتخلّص من الشحوم التي التصقت بيده، وأردف ضاحكاً:

– وأحتاج إلى فريق طبي لتخليص شراييني من الدهون التي ترسّبت في مجراها.

قام العامل بإزالة الصحون والأطباق وبقايا الأطعمة من أمام فيصل الذي طال انتظاره فقام ليتفقّد مضيفه الذي دخل دورة المياه ولم يخرج، فأخبره العامل أن رفيقه تسلّل منذ وقت مبكر، وطالبه أدباً بدفع الحساب.

وقف فيصل خلف مكينة الحساب متأملاً رجلاً له تفاصيل مغروسة في ذاكرته إلا أنها ذات سمة مخاتلة تبتعد وتقترب إلى درجة تعطيك الثقة في أن تقول اسم صاحبها مباشرة.

ظلّ متصلباً أمام مكينة الحساب من غير أن يبادر إلى الدفع أو السؤال عن مقدار المبلغ الذي يجب دفعه، وأنقذه من ذلك التصلّب صوت المحاسب:

– حسابك ١٧٩ ريالاً.

أعجزه التذكر، إذ ما زالت صورة المحاسب تقترب وتبتعد تذكره بلعبة "احرز" ولم يزح تلك الصورة عن مخيلته إلا استرجاع بدانة صديقه المفترض مسترجعاً حالة الإحباط التي لازمته وهو يستمع إلى كمية الشتائم التي سمعها.

ثمن قيمة الاحتراز، فبعد مغادرته المقهى قذف بشريحة الخلوي وحمد الله أنه غيّب اسم الفندق والمدينة التي يسكنها، إذ كانت احتياطاته سابقة لأي ردة فعل يمكن أن تحدث. فبعد هبوطه من الطائرة طرأت بباله فكرة أن يعيش بعيداً عن مدينة الكاتب، فاختار مدينة الخبر.

من فجر اليوم التالي أدّى صلاة الفجر في مسجد توسط مدينتي الخبر والدمّام وتناول وجبة إفطار خفيفة واتجه إلى المكتب الرئيس لجريدة **اليوم**، فطُلب منه الانتظار ريثما يتوافد المحررون، فاتّسعت دقائق انتظاره ولأنه لا يحبذ هذه الحالة فقد احتار إلى أين يتجه في ذلك الوقت الباكر. أخذ يتلهى بين شوارع مدينة الدمام ويخمّن لو اصطاد ذلك الكاتب الحقير في أحد هذه الشوارع الضيقة أو المتسعة فما الذي سيفعله؟ أسقط في يده إذ لم يكن لديه مسدس وكان التخطيط أن يمنحه صديقه المفترض مسدساً عندما أخبره بحاجته إلى مسدس من غير تفاصيل عن الحاجة، هذا

ما اتفق عليه في غرفة الأنصار برمزية: "تعال وأنا أمنحك الجهاز".

اعتراه شعور الخذلان وقرّر العودة مباشرةً، لولا أن أسعفته ذاكرته بصورة الزرقاوي وأفعاله في طريقة تصفية أعداء الله.

انشرح خاطره، ومنح نفسه شعوراً بالغبطة، وعاد أدراجه إلى مقر الجريدة ومخيلته تفرز كمّاً من الصور التي تُبهج نفسيته، وكانت صورة مواجهته مع عدو الله تتسع رويداً رويداً فيشكّلها في مخيلته وفق ما يشتهي، وكان الإطار الجامع لتلك المواجهة رعب الكاتب وفزعه من رؤية السكين المشهورة على رقبته وكلمات الاعتذار يُتأتئ بها فلا تستبين معانيها فتفرّ منه نظرات الجزع عندما يمسّ النصل رقبته من الأسفل، وتخيّل أنه يسارع بالإجهاز عليه قبل سماع كلمات التقيّة تندلق من فمه فكانت خرخرة دمه سباقة لما قبلها.

كانت مخيلته تفرز كميات من النهايات المتوقعة وغير المتوقعة، ومع ذلك لام نفسه لعدم تملّكه سلاحاً خاصاً به، وأضمر التسلّح بمجرد عودته.

وقوفه أمام بوابة الجريدة أعاده إلى الواقع، فندم لاعناً كل صورة تفقد وهجها بسبب الواقع.

وقف مرةً أخرى أمام رجل الاستقبال فهاله تأخّر الموظفين إلى ما قبل صلاة الظهر. فعندما دخل مصلّى الجريدة كان نفرٌ قليلون يؤدّون الصلاة فانضمّ إليهم

وخاطرَ يلخ عليه جعله أبعد ما يكون عن الخشوع، وأدار عينيه في المصلّين فلم يحسن الظن، فالمتواجدون من ذوي الأعمال البسيطة وجلّهم من العروق الآسيوية، فصرّح لنفسه بما كان يجول في خاطره:

– هذا مكان محسوب على اللبراليين ويشهد على أنهم لا يقيمون فرضاً.

قام بأداء السنة وهو يحاول التنفيس عن مرجل غضبه، ووقف مرةً أخرى أمام رجل الاستقبال الذي وجّهه مباشرةً إلى مدير التحرير:

– وصل أخيراً...

وقف مستخفاً بمجموعة من المحررين تهيؤوا لعقد الاجتماع اليومي ومناقشة أخبار ومانشيتات عدد الغد.

استشعروا وقوفه فعاجلهم بسؤال عن مدير التحرير، ليجد يداً ترحب به وتدخله مكتباً منزوياً:

– أنا مدير التحرير. ما الذي أستطيع أن أقدمه لك؟

تندم لاستعجاله بالإفصاح عما يريد. شعر بذلك عندما وجد إجابةً أسرع من السؤال:

– أين أجد بيت الكاتب حمد التركي؟

هيأته وأسلوب حديثه لم تعزّزا حسن الظن لدى مدير التحرير، وكانت كلمات التوديع سابقة على أيّ سؤال آخر.

مع دنو صلاة العشاء كانت صورة محاسب المقهى تقترب مرةً أخرى.

يا لهذه الذاكرة! كأرضٍ خصبة لا تميت أيّ بذرةٍ تُلقى فيها، فإن لم تفسد في حينها عادت إليك في المواسم التالية بنبتةٍ لم تكن في الحسبان.

تواجد في المقهى وظلّ يحدّق في المحاسب من غير التفرّس في ملامحه مباشرةً. صبر على التأرجح بين القرب والبعد علّ الذاكرة تفيق، وكلّما ركّز في الماضي استجمع تلك التفاصيل. أخذت الصورة تقترب بتؤدة؛ تقترب وتتضح رويداً رويداً؛ وعندما قلب تلك التفاصيل اقتربت أكثر. تذكّر أن هذه الملامح شاهدها مراراً وترسّخت من خلال صور كانت تمرّ بها عيناه وهو يبحث عن وجه حبيبته بين أفراد أسرتها، ونهضت ذكريات موغلة في البعد عندما داهمت عربة نقل شارعهم الخلفي ونقلت أثاث جارهم طارش بعد خصامٍ نشأ بين والده وجارهم البيشي. كانت الذكرى موغلة إلا أن الصور كانت هي المحفّزة لتذكّر الملامح... ووقف أمام المحاسب فارداً ابتسامة الظفر:

– هل أنت العم طارش؟

توقّف المحاسب فجأةً ونظر إلى سائله مبادلاً إياه الابتسام:

– نعم. ومن أنت؟

– ...

– أأنت حمو فائز البيشي؟

– نعم. ومن أنت؟

لم يستطع تمالك فرحته واستدار مقتحماً باباً قصيراً يحجز المحاسب عن مرتادي المقهى، وأخذ يحضن طارش ويقبّل جبينه ويديه في نشوة غامرة.

– أنا جار فائز البيشي وبيتنا ملاصق لبيته.

أخذ طارش يرحب وينثر كل الكلمات التي يمكن له أن يقولها لغريب أعاد إليه أياماً من جزء ترحال غربته الطويلة، وأقسم عليه أن يكون ضيفه على الغداء في اليوم التالي.

– أفلت ذلك الكاتب الحقير من عقوبة القصاص لكنه لن يفلت منها إلى الأبد.

وقف منفعلاً مع شيخه يخبره بما فعل ويعتذر عن إقدامه على خطوة ألحت عليه أن يمشيها منفرداً.

طفحت ملامح شيخه امتعاضاً ولوماً للانفراد بالرأي موضحاً له أن هناك ترتيباً لا يقبل المغامرات المنفردة.

كانت كلمات الاعتذار تلحق كل كلمة تقريع، وكانت ردوده اللينة الخاضعة محفزة لأن تتراخى شدة شيخه وقسوته:

– انظر، لو أنك أخبرتنا عن سفرك إلى الشرقية فربما أوكل إليك أمراً عظيماً تنجزه أكثر فائدةً من قتل كاتب يسبّح بحمد أسياده.

– أنا على أتم الاستعداد لما تأمر به يا شيخنا.

هلت في خاطره صورة طارش؛ تلك الشخصية المفروسة في الغربة والألم، لم يبح بعذابه لأحد، فقط قرر مواصلة غربته ليبقي على شرفه ناصعاً ويحمي عائلته من السقوط بين ألسن السوقة.

استجابةً لدعوة تناول وجبة الغداء، كان الضيف حاضراً في الموعد المحدد، كانت مراسم الاستقبال تنفي رقة حال المضيف الذي وقف مستقبلاً الضيف على بوابة فيلا اتسع فناؤها وزُيّنت أسوارها الخارجية برخام ناصع البياض وعلى الرصيف المحاذي لأساس

البيت تناثرت شتلات وشجيرات الزينة، وتوزع ثلاثة من العمال داخل الفيلا كل واحد منهم يؤدي دوراً محدداً يعرف مسبقاً حدوده واجباته.

أخذ طارش يجاذب ضيفه كلمات الترحيب والمواضيع الاجتماعية المعلّقة على ألسنة الناس محيداً مفردات الفاقة وشاكراً لله على الخير العميم. تنبه فيصل إلى أنّ مضيفه، مع انبساط أساريره وتدفّق المواضيع، يتعمّد تأخير الوقت لشيءٍ ما، وكلما رنّ جهازه الخلوي سارع إلى اختطافه:

– عذراً للغاية، فالواجب أن يكون زوج ابنتي في استقبالك لكنه تأخر لانشغاله في عمله وسوف يكون معنا خلال ربع ساعة.

لم تستطع الساعة أن تقوم بواجب الضيافة فأسرعت معلنةً تجاوز الوقت بنصف ساعة إضافية، لتحفّز طارش على إجراء مكالمة أنهاها على عجل:

– زوج ابنتي يعتذر منك لعدم تمكّنه من المجيء.

ونهض مرحّباً بالضيف لتناول الغداء.

طفت على المائدة الأكلات الشعبية الجنوبية بحذاقة نكهتها وتلوّن مذاقها وتعدّد أطباقها واختلاف بهاراتها. مائدة فاخرة بكل المقاييس يتقدم أطباقها الشهية خروف مشوي جُهّز بطريقة المظبى، تنازعه على الأفضلية بنت الصحن وطبق المرسى الغارق في كميات من السمن والعسل، وتناثرت بقية الأطباق بأنواع مختلفة من الإدامات.

أحس طارش بدهشة الضيف وحيرته بأي الأطباق عليه أن يبدأ، فتضاحك طارش:

– نحن نبدأ بالأكلات الحلوة ثم نتقم بالبقية، فإن أردت نمشي على طريقتنا أو نمشي على رغبتك.

أقسم فيصل أنه لم يذق أكلاً بهذه الروعة منذ أن وعى على الأرض، وبعد أن مضت مقولته تمنى أن يسترجع قسمه لولا إحساسه بأنه على وشك إذاعة سرٍّ دفين.

عادا إلى المجلس فلفت انتباه فيصل أن البسط سهلة الوطء ذات كثافة من غير وبر، وأن المقاعد تتقارب ألوانها مع الرسومات المتقنة التي تزين الجدران، واتسعت المناضد لحمل زينات متعددة، بينما تدلّت ثريات منطفئة تنتظر ليلاً لإظهار جمالها، وحفت أطراف الستائر بأشرطة تتناسق مع الأرضية الرخامية المشعة، وترامت الورود، كل مجموعة انفردت بأصص منفردة منها الحمراء والبيضاء والصفراء.

جذب اتساع عيني الضيف رواح ومجيء العمال بتقديم الشاي وأنواع الفواكه.

– على فكرة، أنا صاحب المقهى والاستراحة التي التقينا فيها. ولديّ محال عديدة والحمد لله، وتواجدي في المقهى لأنه فأل خير بدأت به عملي كما أني أحب ممارسة أعمالي مباشرةً، ولم يكن ممكناً التدرّج في عملي وتنوّعه لو بقيت في جدة.

احتار فيصل في كيفية الردّ فجذب أطرف جملة وصل إليها لسانه:

– الله رازق هنا أو هناك.

– نعم، الله الرازق.

حاكت مخيلة فيصل صياغة جملة كان دائماً يسمعها من عمر، وذكّره واقع طارش بها:

– الضعف حياة قوية على الضفة الأخرى من النهر.

تضاحك على الجملة في سرّه نافضاً عن باله السرحان فيما لم تكن جمل الترحيب التي أطلقها طارش إلا محاولة حثيثة لدفع الضيف إلى مسار محدد كي يتحدث عن نفسه من خلال السؤال عن أخبار الحارة وعن رجالاتها فوافقت رغبته رغبة الضيف، وكان يظن أن التعريف بنفسه يضفي بهجةً على الجلسة:

– ألا تتذكرني يا عم طارش؟

– ...

– أذكر (إذ لم أكن واهماً) أنني كنت أراك دائماً بجوار منزلنا، وسألت أبي عن رحيلكم في ذلك اليوم الذي أصرّ فيه البيشي على إدخال سيارة العفش إلى برحتنا الضيقة لكنه لم يجبني.

– من أبوك؟

– أنا فيصل سليم، أنا ابن سليم الجمل.

ارتعش المكان واتّسعت كل الزوايا لاستقبال صمت عالي الكثافة. أحس أنه ألقى قنبلة أدت إلى إزهاق الأرواح والأمكنة وسحب الهواء المندفع من المكيفات.

أحسّ أنّ المقاعد تهتزّ وأنّ الوسائد تخلّت عن لونها وأنّ العمال أحضروا صحناً كبيراً للقيام بشيّه كاملاً. بصعوبة بالغة خرجت كلمات فيصل:

– هل أزعجتك معرفتي؟

لزم طارش الصمت وإن كانت تأوهاته قادرة على إظهار ألمٍ دفين كان صدره يظن أنه اندمل. هذا الصمت البليد ران على المكان وتلبّدت غيوم من الاستفسارات. ظلّ طارش ينازع لسانه كي يحكي.

– أبوك سليم الجمل هو الذي حملني على مواصلة الغربة وليته قتلني قبل أن يفعل بي ما فعل. ألم تسمع بما فعله أبوك من تلويث لشرفي؟

عاد طارش إلى الصمت مبقياً على آهاته.

– لا شك بأنك سمعت بقصة الكيلوت الأحمر. سليم كان خسيساً، اقترف اثماً وأصر عليه، ومع انتقال بائعة القماش إلى بلدة أخرى استفحل كذبه وادّعى بما لا يطيقه القلب كمداً. فائز لم يكن راغباً في كشف نفي أو اثبات فريّة سليم، لهذا كنت المعلق الوحيد بتهمة شرف ابنتي. ذهبت إلى سليم مراراً ورجوته متوسّلاً وفي كل مرة يدفعني من أمامه غير مكترث. هذا الذهاب والإياب من وإلى بيت أبيك أوصله إلى الملل فأخبرني بالكيفية فسارعت إلى فائز أنفض عن ابنتي ما قيل عنها، ولكي نوثق اعترافاته دعونا جاريين هما صالح البكري وخليل مناديلي وعقدنا جلسة. كان تبادله النظرات مع فائز أداة شحن لتنطلق البغضاء من قلب

سليم ويؤكد الواقعة. هذه القصة التي جعلتني أهيم في الغربة حاملاً زوجتي وابنتي وكان بمقدوري قتل أبيك لولا أنني تزيّنتُ بجزءٍ ضئيلٍ من عقلي، حين خطرت ببالي زوجتي وابنتاي قطوف وبسمة وما سيحدث لهنّ لو أني انقدت لهواجسي، فاستودعت ابنتي في كنف زوجها ليفعل بها ما يشاء وانطلقت أطرق أبواب الغربة.

كان فيصل في حالة يقظة ومصدّقاً على كل كلمة يقولها طارش، وتمادت عاطفته حتى وقفت جملته محشورةً بين أسنانه:

– نعم، هذا السليم كان خسيساً.

خرج فيصل غائم الملامح يتحامل على نفسه لكي لا تذرف عيناه الدمع. كان قلقاً لا يعرف أيبكي مأساة طارش أم مأساته هو؟

نبرات مهيبة تلقي درساً عن الأخلاق لخصه في جملة بسيطة:

– الإنسان وجود أخلاقي ومن دونه يكون كومة من النفايات.

كان فيصل متنبهاً لكل كلمة تفوّه بها عمر، ظاناً أنه يتقصده بتلك الجمل.

أنهى خطبته في دقائق معدودات لم تتجاوز العشر، واتّجه إلى حيث يجلس فيصل مرحباً وحاضناً:

– لو أخبرتني لجئت إليك.

– سبق وأن جئت لأبي فهل ستأتي للأب والابن معاً.

وأطلق ضحكة توّدد وتماسكا بأيديهما وكلٌّ منهما يدفع الآخر كي يتقدم.

مع مجيء فيصل من الشرقية كان مهتزاً لا يثبت على رأي ولا يستقر على حال. لقي رسالة ممهورة بتوقيع عمر، فتحها ولم يجد إلا سطراً واحداً:

– القول هو الوجود أما الفعل فما هو إلا إثبات لذلك الوجود.

وقف طويلاً أمام ذلك السطر واضعاً كلمات عمر في ميزان معارفه المختلطة، وكلما ثبت على معنى نازعه معنى يناقض ما توصّل إليه في فك أحاجي الرسالة.

تبسّم في داخله وهو يسترجع ماضيهما:

- لم تتغير يا عمر، تلقي الكلمات الغامضة وتريد من الآخرين فهم مقاصدك.

في مكتبٍ وثير اقتصر على وجودهما، يجاور المكتب كرسيين أحدهما استقر في الأمام، والمقعد الرئيس ثبت لمن جلس على المكتب، وتخلّت الغرفة عن بقية المساحة لمكتبة ضخمة حوت أصناف الكتب بجميع أشكالها وأحجامها، وعلى سطح المكتب تناثرت قصاصات من مجلات وجرائد وبقي جهاز الكمبيوتر يومض وميضاً باهتاً. ارتاع فيصل لوجود جريدة انثنت على مقال للكاتب حمد التركي فقفز مستنكراً:

- هل تقرأ لهذا الزنديق؟

- إن كنت تريدنا أن نبدأ حديثنا عن هذا الزنديق فسأفعل؟

كانت صورة الكاتب حمد التركي لا تزال في الجيب السفلي من ثوب فيصل؛ الثوب الذي قدم به من المطار، ولانشغالٍ مهمّ كرّس وقته الماضي لإنجازه لم يعد إلى البيت لخلع ثوبه. كانت صورة الكاتب كبيرة وتَلِفَتْ من جوانبها إلا أن ملامح الوجه واضحة تماماً... ما زالت الصورة تتموّج بين يدي فيصل:

- أنا أقرأ مقالاته أمّا أنت فتحمل صورته، فأيّنا أكثر حباً للرجل؟

كان عليه إظهار سبب واضح لحمل صورة ذلك الكاتب المنحلّ.

- بل أنا أشد رغبةً في قتل هذا الزنديق.

وروى لعمر عن رحلته الفاشلة التي انتهت صباح اليوم وأخبره أنه إلى الآن لم يتخلّص من وعثاء السفر:

– هل تقول صدقاً؟

– نعم.

أمسك عمر برأسه وأجلس فيصل على الكرسي المقابل لمكتبه، وطلب منه الهدوء.

– يا صديقي، ما الذي يحملك على السير في الطرق المسدودة؟

– وهل توافقه على زندقته؟

– ابن تيمية اتّهم بالزندقة!

هبّ فيصل واقفاً وكاد يمسك بعنق عمر، إلا أن الآخر قبض على يديه وأعاده إلى الكرسي.

– اهدأ.

– يبدو أنّ الكتّاب الذين تقرأ كتاباتهم جذبوك إلى انحرافاتهم.

– أتعلم أن ابن تيمية مات مسجوناً بتهمة الزندقة. فلو كنت في زمنه فهل كنت ستوافق على أنه زنديق؟ أذكر لك مثلاً، فالناس دائماً يتقوّلون بأطراف ألسنتهم، وكل الآراء التي نغرق فيها أو نطفو عليها أو نرسب فيها ما هي إلا أقاويل.

– كلماتك غير واضحة. اشرح.

شعر عمر أن فيصل استعذ كي يسمع:

– العلماء الذين سبقونا، هل يقدّمون الدين أم قدّموا الفقه؟

– الفقه.

– حسناً. الدين والفقه أمران مختلفان تماماً وعند التفريق بينهما سوف تختلف الصورة أيضاً، فعندما يكون فقهاً يعني رأياً وليس ديناً نصياً.

استغلّ عمر هدوء صاحبه فأخذه باللين:

– الفريق المتعاطف معهم يجيزون قتل المدنيين، فإن كنت على السنة الحقة فاعلم أن ابن تيمية يرفض مقاتلة المدنيين ويحرّم قتل غير المقاتل.

حدّث نفسه بالمحاذير التي تلقّاها من الشيخ أبي الدرداء: "الشيخ عمر يجيد الكلام فلا يغرّنك بما يقول". استرجع لياقته الذهنية كمن يريد أن يتأكّد من جاهزيته للركض في مضمار عدة لفّات. صمت قليلاً حتى اطمأن.

فكرة مواصلة الجهاد ما زالت مثقدة لدى فيصل وما زال مفتوناً بجهاده المستتر. كان يحلم بجذب عمر إلى معسكرهم، وها هو ينجذب إليه.

الشيخ أبو الدرداء أوصاه بجذب صديقه وهو يردّد على مسامعه: "إن انضمام الشيخ عمر مكسبٌ كبير لحركتنا الجهادية"، واستطالت أماني الشيخ بأن يدفع بعمر إلى العراق أو سوريا ليكون مفتياً للتنظيم في بلاد الرافدين.

في مخيلته سخر من شيخه وهجس: "كنت تحلم بجذب عمر إلى المجاهدين وأنه مكسب، وها هو يجذبني إليه".

ظلّ عمر ممسكاً بكتف فيصل بينما يتصوّر لعبة شدّ الحبل أنها لعبة غير متكافئة، فمع عمر عشرات القراءات تساعده على الجذب.

هزّ كتفيه برفق:

– هناك أيادٍ سود وطويلة، فحذارِ.

شعر أنه لا يطيق سماع كل هذه التحذيرات والإرشادات، إلا أنه استدرك من كلام عمر شيئاً يردّ به عليه:

– ألم تقل إن ابن تيمية اعتبروه زنديقاً؟

– نعم.

– هذا هو الوضع، إذ إنّ كلّ ثائر على انحراف أو كفر تصنّفه الدولة أو السلطة زنديقاً. إذا طبّقنا مقولتك هذه على مجاهدي القاعدة، ألا ترى أن قوى الباطل في جميع العالم يرمون القاعدة بأبشع النعوت؟ في السابق كان الثائر رجلاً واحداً أما الآن فإن الثوار جماعة.

صمت منتشياً وفخوراً بما قال وكأنه ألقى حجراً في مياهٍ آسنة.

ضحك عمر متصنّعاً اهتزاز ركبتيه:

– الأمر ليس كذلك. سوف أشرح لك أو لنقل دعنا نتحاور على رأي أصحابك اللبراليين.

أظهر فيصل الرغبة في قطع الحديث وأعلن اعتذاره وأنّ عليه العودة إلى البيت للتخلّص من آثار السفر.

– ولكننا لم نتحدث في الأمر الذي جئت من أجله، ولم أحدّثك عن الرسالة التي تركتها لك.

– مرة أخرى إن شاء الله.

تواعدا على أمل الاجتماع قريباً.

هيام...

النسخة الأصلية لجمال قطوف. فقط تخلّت عن لون بشرة أمها والتصقت بجذر النسب للبشرة السوداء.

لونها الغامق لم يمنع تربّص العيون بحثاً عنها، وجلوسها خلف النافذة مكّنها من الإبقاء على إرث أمها (أو أبيها في حقيقة الأمر).

تغاضي أبيها عمّا تفعله مكّنها من اقتناص فرصة الاستمتاع بالجلوس خلف النافذة مبحرةً بعينيها بين المهرولين أو الواقفين أو السائرين أو الباحثين عن عشقٍ عابرٍ أو مقيم، ولا تمانع من التقاط أي غريق توصله إلى الضفة الأخرى ولا تُلحقه بمئة.

– لو رأيتك واقفة هنا فسأكسر ركبتيك.

هذا صوت أمها.

وفي كل مرة يشبّ بينهما شجار ينطفئ لهبه بعد مضي أسبوع أو أسبوعين. صرّحت باعتبار أن أمها شوكة سامة وقفت بين اللهاة والبلعوم وأحالت حياتها تنغيصاً دائماً.

في فترة المراهقة تتفتّح المشاعر كجنةٍ ثمارُها دانيةٌ وأنهارُها تفيض أحلاماً فلا يعود هناك إنسان لا يحلم، وليس هناك من فروقات تميز بين المحبين. كان قلبها يدقّ يومياً وفي صبيحة اليوم التالي تكون على ضفاف قلبٍ آخر.

البشر قساة لا يُبقون شيئاً على حاله، فقبل مغادرتهم النهر يُعكّرون صفاء الماء حتى ولو ببلل ملابسهم، وأول مسمار دقَّ في قلب هيام جملةٌ تفوّهت به الجارة مريم أحمد حين كانت تقارن بين جمال قطوف وجمال ابنتها:

– هيام أنقصها لون أبيها أن تفوز بجمالك.

كان اعتراض قطوف هو امتنان مبطن لفرادة جمالها:

– ابنتي الجميلة السوداء.

كان هذا الوصف أول تصنيف تتعرّف إليه، وتتعرّف إلى أن بشرتها عورةٌ يجب سترها. في أول معرفة فكّرت بعمق كيف يمكنها ستر لون جلدها، ومع توالي الأيام تتضخّم كرة اللون ويُنزلها درجةً بين أندادها من الصبايا حتى غدت أيّ دميمةٍ تفوقها جمالاً بلون بشرتها.

منذ تلك المعرفة اللونية كانت تتذمّر من لون بشرة أمها، تلك البشرة التي تحولت إلى لعنة بينها وبين أبيها، كانت تتمنى لو أن جدّيها (لأبيها) بقيا في البيت فلربما كانت السيادة للون الأسود.

سقطت هذه الفكرة من رأسها بتهكّم واضح:

– أعتقد لو ملأنا البيت بكل من خُلق ببشرةٍ سوداء منذ آدم فسوف تتغلّب أمي علينا جميعاً... السيادة دائماً للبيض.

خاضت محاولات عديدة للانتصار في معركة اللون. كانت الألوان الزاهية هي سيدة الموضة لديها، وفي المقابل أخذت موقفا سالباً من الفساتين الغامقة، بينما وقفت أمها في الصف المقابل تماماً فهي العاشقة

للألوان الغامقة. هذا العشق كان ينخر أعماق هيام ويؤكّد أن اللونين حوّلا بيتهما إلى ساحة معركة.

ومع أن أباها مناصر لها في بشرة اللون إلا أن شهوته ميّالة لمناصرة أمها. قطوف كانت تعرف ذلك وتنصب لفائز فخاخ الشهوة من خلال الألوان الداكنة، حتى اذا رغبت في تنفيذ أمرٍ من الأمور ارتدت فستاناً أسود يبرز لون بشرتها البضّ وتغدو في الليل نجماً يضيء بوجهٍ آسر.

وقفت قطوف تجرّب فستاناً خُيّط لها ولم تقوَ هيام على لجم لسانها:

– أحمد الله أنني سوداء وإلا شككت...

وقبل إكمال جملتها تلقّت صفعةً عنيفة من أمها تساقطت لها أدمعها.

مسامير من الكلمات دقّت في قلب هيام منذ وقتٍ مبكر، كان أكثرها قسوةً تذلّل أبيها.

تذكر تلك الليلة التي لم تنم فيها باكراً كعادتها ولم تشأ إزعاج أبويها في خلوتهما، وأثناء مرورها اختلست نظرةً عابرة فتسمّرت من المشهد: رأت أباها يحاول جاهداً إخفاء تقرّحات جلدية تمدّدت من ساعده الأيمن إلى المعصم مع استجابة لغواية الهرش المستمر؛ تلك التقرّحات التي تظهر حيناً وتختفي حيناً.

رأته ذليلاً خانعاً يتوسّل الرضا بكل الكلمات، فيما كانت قطوف (بعد هذه الليلة أصبحت تناديها باسمها المجرّد) ترتدي فستاناً غامقاً يموج على جسدها فضاق

بين تضاريس جسدها الرحيب كاشفاً عن ضمورٍ حادٍّ في خصريها ومرخياً فضاضته على ردفيها النافرين ليعود ضامراً بين سهوب فخذيها... كانت طاغيةً في الحسن ومستبدّةً في الإباء. سمعت هيام كل كلمات الخضوع والاسترحام والتباكي التي قالها أبوها:

– منذ زمن لم أسعد بقربك.

– ولن تُسعد.

استنكف ردّها وهبط عنفوانه إلى الحضيض، فلم يجد وسيلةً يتقرّب بها إليها الا بالسؤال:

– ولماذا يا روح الروح؟

– انظر إلى حالك وانظر إلى حالي!

في أحيان نظن أن الكمال يلازمنا كوننا نمثّل ضفيرةً واحدة، وأن الناقص يتمّ جبره بالاستيفاء مع الكامل. هذه نظرة سطحية، فالناقص يدخل المعادلة ناقصاً، والناتج ما هو إلا استيفاء الكامل لما نقص منه.

وقف حائراً أمام دعوتها له بمعرفة الحال، فعندما أزال ظنه بأنه اكتمل بها، تقوّض في البدء ثم تكامل بصنع الله. فحين تفاخرت:

– إن الله جميلٌ يحبّ الجمال.

– الجمال هو كل ما خلق الله وأنا خلق الله.

انسحبت هيام من تسمّرها أمام غرفتهما وحمدت الله أن أباها لا يزال متأكّداً بأن العنفوان والجبروت صفتان ما زالتا راسختين في مخيلة ابنته.

خضّبت هيام ذلك الليل بدموعها، وطرأت في بالها أن السواد مقبرةً لمن لا يحب الحياة. انتعش خاطرها وتراجعت بسرعة عن الفكرة بمجرد رضاها عن صياغة الجملة، هاتفةً:

– عروق التاريخ سود.

لم تستوعب جملتها كما يجب لتدافع عنها على الأقل أمام نفسها.

جافاها النوم وظلت تجتز الكلمات بحثاً عن صيغةٍ تهدئ من التهاب مشاعرها وأسفها على نفسها. وأرادت أن تجرّب جمالها الأسود، مقترنةً بعلاقات طائرة لا تثبت للأيام. علقت أذناها بين حبال الألسن حتى جاء ذكرها مقروناً باستخفافٍ طال والدتها.

أصبح تاريخ عشقها مفرزاً نتائجه من قبل أن يمضي بعيداً ويتغلغل في وجدانها عميقاً، وفي كل علاقة تضع ضمان أمان لكي لا يُقلع قلبها من جوفها، وكلما همّت بالتعرّف إلى أحد شباب الحيّ كان يقتلها بكلمة "يا عبدة" فلم تعد لها آذان ولا عواطف تجري في أوردتها أو أحلام تعشش في رأسها، ومع ذلك كانت تسير في مسالك الحياة ناقمةً على حام بن نوح.

بلغت حدّاً من القسوة غيّر من طبيعتها المرحة فأصبحت الكلمات تثير حساسيتها. في إحدى المرات تعرضت لمضايقة ياسر بن صالح البكري ، كان يتابع مشيتها بغزلٍ سمج، وكنوعٍ من التحفيز حتى تنظر إليه رفع صوته:

– أنتِ يا كوكا كولا!

فأظهرت تمنعاً وبصقت في طريقه، فأطلق ضحكةً جافة وردّ عليها في الحال:

– وكمان غازات!

سقطت هيام في جبّ سحيق، وبين سقوطها والوصول إلى القرار رأت ألف فم فُتحت على مصراعيه وتسابق الكل أيُهم يوصل قهقهته العالية إلى مسامعها قبل الآخر، وفي سقوطها هوت السماء والأرض، وجدران الحي تهاوت والأزقة ضاعت عن مواقعها والناس فتحوا عيونهم وأبصارهم لينظروا ويسمعوا تلك النكتة... انهيارٌ عظيم سحق ما تبقّى لها من اعتداد.

لم تعرف كيف عادت إلى منزلهم ولا تعرف مقدار الدموع التي سكبتها. تتذكر أن فيصل سليم كان يخفف عنها ويسايرها إلى أقرب نقطة توصلها إلى المنزل. في فراشها احتاجت مخزونَ الدمع الذي خزنته طوال عمرها حتى إذا سكبت ما فاض عن حاجته أمسكت. في تلك الليلة اختارت إصدار عقوبتين: صلب ياسر البكري ونفيه من الوجود.

في إحدى المرات قال فيصل لشيخ يصغره مرتبةً وسناً:

– لا أحبذ ما يصفني به الآخرون. أنا أصف نفسي وحسب!

واحتاج نصف ساعة ليقرّب رؤيته عن الآخرين والذات.

– كل الأحاديث التي تُقال عنك هي أحكام استندت على المتصوّر، فالآخرون ما هم إلا كاميرا لا تجيد التصوير وإن أجادت فإنها لا تلتقط كل الزوايا، فتأتي الصورة مبتورةً أو ناقصة وإن كانت حقيقة فهي ليست كل الحقيقة بل جزءٌ منها، لأن الحديث عن الظلال والنور داخل الصورة سوف يقلب كل مفاهيم وحقيقة تلك الصورة، فالصورة تصوّرٌ ناقص، لأن الوصف هو الأداة التي تمنحك الصورة، والوصف حالة غير تامة.

أحياناً يُتيّم فيصل بنشاط عقله ويُغرم بأفكاره وينساق في فتنة متواصلة بذاته، وتتنوع مراحل الافتتان ليصل إلى قناعة بأن الله حباه بمعجزة لن تظهر إلا على يديه.

اتّسع جوفه لجمع الضغينة والبغضاء ولم يعد قادراً على الوصول إلى آخر فجوة يرى منها النور، وما زال يجلّ أشخاصاً أغووا بصيرته بما لا تخطئه الفطرة.

النفس النزّاعة إلى الهروب تذوي مبكرةً، فسقوطها الدائم بين الحفر يصيب أجنحتها بالتكسّر.

والآن ليس أمام فيصل سوى الحديث إلى نفسه. الغلوّ نفّر عصافير قلبه والتعبئة للجهاد أدخلته دهاليز المزوّرين وتجار المكائد.

– أصحاب النية الصافية عليهم أن ينأوا بأنفسهم عن السير في الطرق الملتوية.

جملة لا يتذكّر أين سمعها أو قرأها لكنه متيقّن من نتائجها الآن.

شحّ الأصدقاء وتناقصهم بإسقاطهم من حساباته، مع التواري الدائم، يخلق الحنين إلى الدعة وراحة البال.

– مضت راحة البال

كلما التهم الماضي أيامنا أصبح أكثر رشداً. لهذا فالماضي دائماً مطمئن. كيف نقوم بعملية عكسية لاسترجاع طمأنينتنا؟

في قرارة نفسه لم يعد يريد شيئاً سوى التطلّع إلى عينيها وانتظار أن تهمس بالحديث عن جمال الحياة.

مرّر يده على شعرات لحيته الكثّة وابتسم لنفسه:

– ألا تريدين تشذيب لحيتي؟

أمه وكثيرٌ من المحيطين به يطاردونه بسؤال لم يملّوا من ترديده:

– متى تتزوج؟

كان من الاتزان الإقدام على تشكيل حياة اجتماعية مقبولة كأن تعرف أين هو رأسك.

لم يستطع أن يقول لأي أحدٍ من السائلين لماذا لم يتزوج. ربما لو كان جمال حياً لأذاع السر.

قلبه معطوب بالعشق ومع ذلك يتجمّل بخلوّ حياته من امرأةٍ يتمناها لنفسه.

تذكر مناقشة قديمة سرى فيها الحديث عن الزواج وانتهى بقسمٍ عظيم بأن تقتل نفسها لو حدث ذلك.

انتشى بتلك الذكرى قليلاً ليجدها تسحبه إلى مناطق التحسّر بما أوقعه قدره من نصب ووصب وهمٍّ وحزن، فاسترجع نفسه بالاستغفار وردّد: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}.

وصل إلى منتهى الطريق المتفرّع إلى جهتين: جهة الموت أو جهة السجن.

وحدّث نفسه متحسّراً: "يبدو أنّ عمر لن يترحم عليّ أيضاً".

تذكّر جلسته مع عمر؛ فبينما كان يحدثه عن ذهابه إلى الشرقية جاء اسم جمال عرضاً ولم يشأ أن يترحم عليه إذ وجد غضاضةً في ذلك. هذا الموقف لفت انتباه عمر:

– ألا تترحم على أعزّ صديق لنا؟

صمت ورغب في الانتقال إلى الحديث عن الكاتب حمد التركي طالباً منه سرد تفاصيل عن توجّهاته، وأي السفارات يتردّد عليها، وما هي أفكاره الساعية لتغريب المجتمع؟ كانت أسئلته كثيرة وكأنه يهيل التراب على سيرة جمال. وإمعاناً في البعد ذكر صلاته في جريدة **اليوم** ووقف على طبيعة اللبراليين وأقسم مجدداً:

– سأعود إلى الدمّام علّ الله يمكّنني من ذلك المرتد؟

تدارك ريقه المتطاير بمنديلٍ وضعه على فيه لرشحٍ أصابه:

– سوف يأتي دور كل الكتّاب الذين يحاربون الله ورسوله.

صعق من ردّ عمر عندما نفى ركناً من أركان العقيدة:

– لا يوجد حكم صريح على المرتد.

تلعثم ونفر بؤبؤا عينيه جامعاً ريقه متخلصاً منه داخل سلة المهملات.

– ماذا تقول؟

– سوف نتحاور في هذه المسألة لاحقاً. الآن قل لي لماذا لم تترحم على جمال؟

– جمال مات كافراً، ولست الوحيد الذي يقول هذا، حتى الخالة ياسمينة وصلت لهذا القرار.

– الخالة ياسمينة أيام زمان أم أيام جمع الأموال؟

تطلّع إليه فيصل:

– هل تتهمنا بجمع المال لنفسينا أم أنك لا تعلم أننا نرحله للمجاهدين؟

لاذ عمر بالصمت للحظات بينما كانت يده منشغله بإعادة كوب الشاي إلى الطاولة، ثم كفك لسانه المعقود بالدهشة:

– تقول إن جمال مات كافراً؟ كيف؟

– تذكر شغبنا وتعدّينا على خلق الله وعزوفنا عن الصلاة، والفجيعة أنه عندما حضرته الوفاة لم ينطق الشهادتين. رغم إلحاح عبد الله الجافي تلقينه الشهادتين لكنه لم ينطق بهما، فهو في النار.

– ...

– فكيف تريدني أن أترحم على كافر، أو كيف أترحم على من هو في النار؟

– ...

– وأظنك يا عمر تسير على خطاه، وإذا لم تتخلّص من أفكار اللبراليين وقراءة كتبهم فأنت تلبس لبوسنا وتضمر الودّ لهم.

ظل عمر صامتاً محتاراً من أي التهم يبدأ نقضه، وتراجع عندما سمع فيصل يقول:

– لا تجعلاني، بعد أن هداني الله، أكفّ عن الترحّم على أعزّ صديقين.

ظلَ فيصل مداوماً على التفكير في عمل يرى فيه باباً من أبواب الجنة، وعندما داهمته فكرته الخاصة حرص أشد الحرص على كسب ثقة الجميع، ومن أجل الحصول على تلك الثقة كان يتحدث مع زملاء العمل وفق أهوائهم ولا يرى في ذلك غضاضةً انتصاراً وتهيؤاً لتنفيذ مشروعه.

في جلسة حوارية صرّح الشيخ ماهر النمشي بقوله:

– يجوز لك استبطان كره الكفار في سبيل الإيقاع بهم.

وفيصل يحفظ أقوال مشايخ متعددين قالوا بهذا الرأي:

– إن المسلم لا يوالي إلاّ مسلماً، وما دام جلّ المسلمين كفروا فلا موالاة لهم.

ولكي يغطّي نفسه من أي ريبة خفّف وشذّب ذقنه واعتدل ثوبه إلى ما فوق الكعبين، وعلى مضض تقرّب من العمال المسيحيين وإن كانت نفسه لا تطاوعه الاقتراب من البوذيين، فأجبر نفسه على ذلك مظهراً لهم حسن المعشر والتودد والقول بما لا يقوله قلبه.

هذا ما أصبح عليه في عمله حتى إذا عاد إلى البيت وتناول وجبة الغداء خرج ناوياً الاعتكاف في المسجد فيمضي هناك ثلاث ساعات يقضيها في الاستغفار داعياً أن يجنّبه الله موالاة الكفار.

في توتده المفتعل أضمر في نفسه أن لا تلامس يده كافراً مطلقاً. في إحدى المرات قدم عليه موظف بوذي من مشغلي الصيانة، فأحسّ بنارٍ تغلي في جوفه ونسي الملاطفة أو المداراة أو كسب الثقة. كان الرجل يبحث عن يديه للمصافحة فامتنع، ولم يجد حجةً تبرّر عدم المصافحة، مبدياً تضجراً، رفع يده نحو الباب إشارةً للخروج فقرر العامل الانسحاب دون شرح أسباب مجيئه، فشعر فيصل بالفرحة الغامرة أن نجاه الله من مصافحة بوذيٍ ملحد.

كانت سيرته في السنوات الثلاث الأول مترديةً بسوء سلوكه وافتقاره لحسن القول والفعل مما دفع مديره المباشر إلى اتخاذ قرار فصله، إلا أن موت جمال أعاد له الاعتبار من تبجيل الناس وتقديرهم.

تغيّر مجرى حياته كلياً، وغدا زملاء العمل ينادونه بالشيخ، ومنذ أن طرأ على باله الجهاد ليكفّر عن سنوات الجهل خطط أن يجعل المصفاة باب الجنة الذي يلج منه.

يتذكر تلك اللحظات عندما تعاهد مع شيخه أن يفني ما تبقّى من حياته نصرةً لدين الله:

– عشت في جاهليةٍ عظيمة، فالحمد لله الذي هداني إلى الصراط المستقيم، وأعاهدك يا شيخنا على السمع والطاعة، فبعد أن منّ الله عليّ بمعرفة الطريق القويم لم أعد أخشى أحداً إلا خالقي، وأن أسترشد بعلمك يا شيخنا.

لا تزال تلك المبايعة ماثلةً أمام عينيه مع أنه بايع على تلك البيعة نفراً من المجاهدين، إلا أن آخر بيعة بقيت في ذهنه لأبي مصعب الزرقاوي. وكلّما تذكّره يصاب بحالةٍ من القلق ويردّد مع نفسه:

– من ذا الذي سأبايعه غداً؟

مصارحته للشيخ أبي الدرداء المدني أخر مشروعه، وجُمدت الخطة في مراحلها الأولى ريثما يستنير برأي الشيخ أبي البراء المصري الذي أنهى اللقاء بجملةٍ باترة تساقطت حروفها رعباً:

– انتظر التوجيهات!

في إحدى دورات المراقبة توغّل فيصل إلى مكاتب المهندسين الفنيين واختطف مجموعةً من الخرائط وعدة تقارير كُتبت جميعها باللغة الإنكليزية، ولخشيته لم يستطع أن يُطلع أحداً عليها، ولمكوثها طويلاً في خزانة بيته ضرب موعداً مع الشيخ أبي الدرداء حاملاً الخرائط والتقارير، وما إن التقاه حتى ظهر على ملامح الشيخ ضيقٌ لم يتمالك دفعه إلا بكلمة احتقار:

– غبي!

وأراد للشتيمة الدخول إلى حياض الطرفة:

– أقصد ذكي. فأنا عندما يعجبني أي فعل أستخدم له مفردةً مضادة.

أطلق ابتسامةً طائشة، ولأول مرة يتنبّه فيصل أن لشيخه احولالاً طفيفاً تركّز في عينه اليمنى مع محاولة مستميتة بألاّ يظهر انحراف بؤبؤ عينه.

سارع الشيخ بركوب سيارته وأوصى باتّباع إشاراته إما للحديث أو الكفّ عنه. في الطريق تركّز الكلام على تعدد مراكز الدعوة والإرشاد واقتصار أنشطتها على

مشايخ محددين وصفهم الشيخ بالمسبحين باسم الدولة، مؤكداً أن خطبهم تؤخر الدعوة الجهادية وتضلل الناس ضلالاً بعيداً، ورفع عقيرته:

– الكذب في هذه البلدة امتدت حباله طويلاً.

بعد نزوله من كوبري الجامعة حدق في المرآة المتوسطة وسار في خط الحرمين معللاً أسباب الاختناق المروري، وأن الكثافة المرورية لن تنتهي إلا ببناء مدينة جدة الجديدة. وكمن ندم على إفشاء الحلّ غمغم:

– الأفضل بقاء الاعتلال المروري علّ ذلك يوقظ القلوب الغُلف.

انعطف يميناً سالكاً الشارع الرئيس لحي قويزة المسترخي بشوارعه وبيوته العشوائية كالمرأة الثكلى تعرض مآساتها يومياً.

هبطا إلى حي قويزة، وهو حي لا يزال ممسكاً بلعنة السيول التي أعطبت الأرصفة وجرفت طبقات الإسفلت وحفرت الأخاديد التي أسكنت أتربةً ناعمة في جوفها.

كان الشيخ أبو الدرداء يسير في شارع محمد بن المؤيد، ذلك الشارع الرازح تحت مياه الصرف الصحي وتعددت منابع طفح المياه فيه، بينما تخلّت الأمانة عن أمانتها تاركةً للشارع مهمة تجفيف مياهه التي غمرت كثيراً من بوابات الدكاكين وطالت بعض أقبية المنازل.

– ما رأيك في قرار منع المراكز الصيفية؟

تمهّل لسماع إجابة فيصل، وعندما تلكّأ تنحنح:

– هذا القرار سيعطّل كثيراً من مشاريعنا، وستقوم الدولة بإعطاء تصريح الخطباء، وبالضرورة لن يمنحوه إلا لمن يوالي السلطة.

وفرّج عن قهره بقهقهة تهكّم:

– لكنه لن يهنأ بما يفكر.

لم يشأ أن يعمّق الحوار حول جملة "لكنه لن يهنأ بما يفكّر".

وقفا عند بيت مشمع الأرجاء له ثلاث بوابات دخول متعاقبة. خبأ الشيخ أبو الدرداء القرارات والخرائط في أسفل زنبيل ممتلئ بالملوخية وقد مثل منظر الزنبيل المحمول بيد الشيخ المتمشلح مشهداً نشازاً.

تجمّع داخل الصالون الكبير ثلاثة مشايخ قدموا من مدن مختلفة مناقشاتهم تشي أنهم على علاقة وطيدة، كان من بينهم أبو البراء المصري، استخدموا ألغازاً وأحاجي في كلماتهم.

أشار الشيخ أبو الدرداء إلى فيصل لتقديم التقارير والخرائط مزيلاً حزم الملوخية مفترضاً أن يقدّم نكاتاً لإضفاء البهجة بين المجتمعين.

كان اجتماعاً مضحكاً تنقصه السخرية اللاذعة لتقديمه كاسكتش في برنامج يحمل السخف نفسه. تحلّقوا حول الخرائط وصفحات التقارير عاجزين عن فك طلاسمها فلم يكن أحد منهم يجيد الإنكليزية، كان كلٌّ منهم يتمنى أن ينوب أحدٌ من المجتمعين لرفع الإحراج عن البقية.

لم يكن من بدّ لتقديم فيصل لشرح التقارير والخرائط التي قال عنها أحدهم:

– من يشرح هذه الطلاسم؟

ومع تلقّي فيصل إشارةً من أمير المجموعة تقدّم شارحاً مخططه، مستفتحاً النقاش بشيءٍ من الظرف لتخفيف جو التوتر المعبأ في النفوس وعلى الوجوه.

أكمل معهم التحلّق حول الخرائط ولم يشأ مواصلة كشف عجزه فبسط الشرح مشيراً إلى كل إشارة تواجدت على خارطة بما اكتسبه من ملاحظات خلال مدة عمله.

لم يكن أيٌ منهم مدركاً خطورة تلك الخرائط أو ما حملته التقارير من أسرار لم يكن لها أن تخرج من المصفاة.

تقدّم أمير المجموعة واضعاً إصبعه في وسط إحدى الخرائط وأدارها على اثنتين أخريين، وحمحم لإخراج احتباس هواء أجهده وهو يتطلع في الخرائط ووجوه المجتمعين:

– أنا لا أثق في نجاح هذه الخطة. نحتاج مزيداً من الآراء والأفضل أن يواصل فيصل جمع المعلومات.

كان الليل على وشك الهبوط، وقد مضى وقت صلاة المغرب، فافترقوا على أن لا يجتمعوا في مكانٍ واحد مرتين، فتقرّر أن يكون الاجتماع القادم في بيت فيصل.

استيقظ متأخراً عن موعد عمله، وفاته الوقت لحضور صلاة الصبح. مضى ليلة البارحة في عصف ذهني أجراه لنفسه من غير الحاجة لأحد.

هذا الاكتفاء وصل إليه بعد أن فقد الثقة في أولئك المشايخ لرفضهم خطته الثانية، فأخذ على نفسه العمل كمجاهد باع نفسه لله وللرسول، وأن تلك المبايعة لا تحتاج وسيطاً أو شاهداً على صفقة البيع ولا تمجيد السلعة أو ذمها. دفع إيمانه الجهادي بيقين أن المجاهد تنطلق نيته من ذاته، لذلك قرّر نسف المصفاة منفرداً. ظل طوال الليل يراجع ما يجب فعله من غير أن يثير ريبة أي شخص.

كانت فرص الإخفاق والنجاح مرتهنة على الحظ، الحظ وحده، ومن غيره ستكون العملية لعبة قمار يعرف اللاعب سلفاً أنه خاسر فيها ومع ذلك يلعبها. هو عناد اليائس من الوصول إلى نتيجة مرضية.

فكر بأنه لن يكون متواجداً حينما تنهال الاحتجاجات والاستنكارات، فهجس:

– أولئك الذين أحبوا الحياة يعادون القيمة المطلقة.

لم تكن الحال مدعاةً للتهكّم أو الضحك، لكن رغبةً سرت في داخله حينما وقف لسانه على "القيمة المطلقة".

هزّ رأسه لتأكيد ما جرى في باله:

– الكلمات سجونٌ نضع أنفسنا في زنازينها ونُغلظ الأقفال.

اجتاحته رغبةٌ تالية لتصحيح "القيمة المطلقة". قلب الكلمات السانحة والتي تقف على أطراف لسانه فلم يعثر على البديل فعرج على المصطلحات وما تعنيه من تلوث على ألسنة أولئك الكتّاب الزنادقة واسترجع تأويلاتهم عن "المطلق".

تمرّس على المخاتلة والخداع، فمنذ استقرت الخطة في وجدانه ألزم نفسه بتدريبات مختلفة ومستمرة، تدريبات تقترب من إثارة الشك حول تصرفاته حتى إذا ما نشأت الظنون أبطلها بحسن التصرف وكشف سلامة نيته ومقصده فتتهاوى شكوك من ظنّ به سوءاً.

كانت مخيلته تعاني من فوضى مرعبة ولم يكن لديه الوقت الكافي لترتيبها.

تزاحمه صورة حبيبته التي فرّط في محاولة الالتقاء بها ولو للمحة. كان راغبا أن يحدثها ولو كلمتين، ربما طلباً للمساندة الوجدانية، فهو لم يخبرها قط بما نوى ولم تعلم شيئاً عن أنشطته الجهادية، فقط رغب أن يبحر في عينيها وبعد ذلك فلينهار العالم.

استهزأ بمشاعره الفائرة بينما خطواته تتجه إلى الموت. فهل ما هو عليه مجرد حلم يتمنى أن يتحقق من غير الإقدام على تحققيه؟

وقف أمام نفسه كآخر تأكيد يمكن أن توافق عليه أو تتراجع، فحدثته بإصرارٍ ملخ:

– امضِ فقد بعثتني لله ورسوله.

سار ملبّد الخطى وبشعورٍ أن زمهريراً أذاب قدميه. كان خياله يطوف بالموقع فيدقّق في أي عمل يبدأ به.

كانت خواطره على وشك أن تُسمع:

– أنا الشخص الجدير بتنفيذ الخطة، هي التي تولدت في رحم خيالي وظللت أنتظرها حتى آن وقت ولادتها. نعم، بعض الولادات دمار، وستكون هذه الولادة نسفاً لمدينة فاسقة سوف يُقال إن اسمها كان جدة.

عرج على اختلاق الطمأنينة وأن الأحداث ما هي إلا فعل سبقته إرادة كونية:

– فالخير والشر فتنة!

لم يشأ استحضار قصيدة قطري بن الفجاءة (أقولُ لَها وَقَد طارَت شعاعاً) فقد سمع من أحد مشايخه أن قطري من قوم سوء، فاستعاض عن ذلك بجملةٍ قُدّت من رأسه:

– اليوم مَحَنَ النفس على شيء عظيم.

من البوابة الرئيسة تأكّد من وجود كل الأشياء التي يحتاجها لأداء مهمته، وحرص على ألاّ يثير شكوكاً.

كانت عيناه عيني الموزّع. تنبّه للجندي شرار بن ملفي يقف أمام البوابة لتفتيش السيارات الداخلة. بعد أن شفي من مرض أقعده في السرير الأبيض لأسبوعين. تمنّى احتضانه. لام نفسه:

– كيف لك أن تحتضنه وأنتما ومن في هذه المدينة جميعاً سثلقّون بعد ساعة في التراب، هذا إن بقي

شخص ليقوم بمهمة الدفن؟

كانت المشاهد الطبيعية التي تحدث كل يوم مشاهدَ جديدةً تستوجب رؤيتها بعين أخرى، عين سوف تغلق جفنيها وتتذكّر مواقع كل الأشياء التي عبرتها ولن تمرّ بها بعد الآن.

سيارات النقل الخاصة أفرغت أعداداً كبيرة من العمال فغدوا كالنمل يتسابقون للدخول إلى شركاتهم أو أقسامهم أو ما زالوا يسعون في أرض رحبة يجمعهم فيها سور يتعب النظر في اجتيازه. وعلى الشارع الرئيس تعبت ناقلات الوقود من انتظار أمر السماح بالدخول. يتقدم سيارته زميله الرياضي حدّ العظم (وجدي بكار) الذي ألف تثبيت شعار ناديه على مؤخرة سيارته ومقدمتها. أناس يسيرون في الدنيا وكأنها خالدة:

– اليوم ستتوقف بكم الحياة!

عنجهية العسكري صنهات ستتكسّر بعد لحظة ولن يحمل وجه المغضب معه إلى القبر لأنه لن يعثر عليه وإن تمنّى!

اجتاز البوابة الثانية متفقداً احتياجاته الأساسية لإنجاح خطته، ولم يبقَ عليه سوى إظهار الاطمئنان والهدوء أثناء تنفيذ المراحل المتعاقبة، فرجال الأمن الخاص يثقون به أيّما ثقة. كانت يده معلقة للسلام على الزملاء وبعض من قيادات الشركات الودودين، واختلط

عليه الأمر هل هي تحية وداع أم نشوة بفناء كل من يحارب الله ورسوله؟

في الطريق إلى عمله لم يستطع الثبات على خطة محددة لنسف براميل الوقود. كان قد وضع ثلاثة سيناريوهات لينفذ إحداها:

التصويب الخارجي على البراميل، وهذا يتطلب وجود معدات وأسلحة متقدمة، على الأقل أن يكون المهاجم يحمل قاذفاً للصواريخ إن تمكن من حمله وأطلاقه. هذا الخيار تخلّى عنه منذ أن رفض الشيخ أبو البراء المصري الموافقة على الخطة.

تبقّت له فكرتان: إما التغلغل للوصول إلى اجتماع القيادات وتصفيتهم جميعاً بواسطة مسدسه الخاص، ولم ترق له هذه الخطة لأثرها المحدود، كما أنها خطة لا تحقق خسارة فادحة، وخطة لا يمكنها إزالة هذه المدينة الفاسقة من الوجود.

فاستقرّ عزمه على تنفيذ مخططه الأخير.

ثلاث شركات في مجمع واحد وتحيط بها أسلاك شائكة تكشف ما الذي يحدث في الداخل أو الخارج، ولأن لديه حرية التجوال من غير أن يثير شكّاً أو يخترق محذوراً، فعمله ضمن فريق رجال الأمن الخاص يمكّنه من الانتقال في أي جهة كانت.

من سنوات بعيدة سجّل كحارس أمن في شركة بترولب المتخصصة لإنتاج الزيت الخام، تجاورها مصفاة جدة لإنتاج الغاز والبنزين والديزل، وفي الجهة

المقابلة قامت منشأة شركة لوبيرف الموزّعة لزيوت الطائرات والمنتِجة للشحم والإسفلت.

استقرّ رأيه على أن يوصل بين المحطات لإحداث دمارٍ شامل، وذلك باختيار أوسط منشأة وإحداث تسريبات للغاز بعد ترك مولّد لصاعق كهربائي يتم التحكم به عن بعد.

استقرّ على تنفيذ هذه الخطة مطمئناً إلى تسريبه لجهاز الجوال.

دار حول المنشأة المستهدفة، وتقدّم مخترقاً مواسيراً عظيمة توصل بعضها بعضاً، فيما كانت درجات الحرارة لا تطاق بسبب انبعاث مخرجات عمليات الاحتراق.

في ذلك الجو المهلك كانت الأسئلة تتلاحق في ذهنه:

– كيف تكون مقاييس درجة الحرارة داخل الأفران؟ وكيف ستكون حين تنفجر لتصل إلى أطراف المدينة وقلبها؟

عجزت مخيلته عن تقريب الصورة. فلو كان جازماً بعودته من رحلة الفناء لربما استطاع تقريب ما سيحدث حتى ولو كان الوصف عشوائياً، ميقناً أن الصورة دائماً لن تكون كاملة أو حقيقية.

جاهد نفسه للإتيان بأكثر من مهمة في عجلة ودقة متناهيتين. كانت أهم خطوة الوصول إلى محابس براميل الغاز المضغوط وإحداث تسريبات فادحة وبعد ذلك لن تكون الخطوات بحاجة للترتيب، فعندما ينفجر

برميل واحد سينطلق لتوزيع الدمار على كل المنشآت، فنهض فرحٌ بكر في داخله:

– من هنا سينطلق الدمار إلى قلب هذه المدينة المراهقة ذات الغزل الفاحش.

نشوة إنجازه مهمات عدة ووصوله إلى آخر خطوة مكّناه من استعجال الخطوة الأخيرة: وقف عند المحابس... وقف وسط جهنم مودعاً الدنيا غير آسف على فراقها، واضعاً يده لتدوير المحبس الأول، وانشغل بتدوير المحبس الثاني... مخيّلته ارتجت، فحلول فكرة الفناء لا تبقي شيئاً ثابتاً وكأنه خرج من اللحظة ليرى طرفة عين أمه، راجيةً الكف عن العبث، مستدعيةً رفّة عين حبيبته الهامسة: "أيرضيك أن نغادر من غير وداع؟" فتريث، ليس بسبب الطرفتين وحسب وإنما لنسيانه جوّاله داخل سيارته الخاصة. استشعر وقوع الخطأ الماحق وأن مهمته الأساسية تدارك الوضع، فالمسافة ضئيلة بينه وبين موقع السيارة. قدّر الوقت بعشر دقائق ذهاباً وإياباً، كانت تقديراته تؤكّد سهولة استكمال نجاح فكرته.

ومن على بعد ظهر ذلك البوذي (الذي لم يصافحه) يخلط حديثه بلهجة عربية متداعية، محتزماً بأسطوانة أكسجين ويطالبه بالابتعاد. كان ينظر إليه مستغربا ظهوره المفاجئ ولم يكن يدرك أنه يتهاوى ويغيب عن الوعي.

* * *

يحدث أن يتسارع الزمن في أعماقنا فيوصلنا إلى لحظة الكشف، عندها نقف على الطرق الموصلة أو المغلقة من اختياراتنا.

قد يكون التغيير بحاجة إلى التفاتة هينة لتقرر خياراً جديداً بعدما تكون قد أمضيت زمناً في الطريق الخطأ.

كان الموقع الذي اختاره فيصل لإحداث الدمار الشامل لمدينة جدة مكاناً ثابتاً على طبيعته يحفل بكل الممارسات اليومية التي ألِفها منذ إنشائه؛ مكانٌ لم يكترث بما خُطّط له فواصلَ يوماً عادياً ولم يجفل من النوايا السوداء.

عزم فيصل على مراجعة اندفاعه الطاغي. فمنذ ساعتين كاد أن يُقتل لولا عامل الصيانة البوذي الذي سارع إلى إنقاذه وأنجاه من موتٍ محقق.

مع إفاقته التقت عينه بذلك العامل ومدّ يده لمصافحته، وخواطر تجري في مخيلته:

– هذا البوذي لم ينقذ حياتي فقط بل أنقذ مدينةً كاملة بها أبواي وإخوتي وحبيبتي وأصدقائي.

شعر بانهزامية متسارعة ضد كل الأفكار التي راودته من سنوات.

– أين أنت الآن يا عمر؟!

– الله أراد لي مواصلة الحياة، وها أنا أعود كطفلٍ يتهجى وجوه الطيبين المحبين؛ يتهجى الكلمات التي يتفوهون بها واقعاً وحلماً، ويشقون في الحياة أنهاراً من الأمنيات.

أحسّ بهدوءٍ في أعماقه، وبثقل الحياة العائدة إلى وجدانه بروعتها. عاد هارباً من الوجوه الكالحة، حاملاً ذاكرة البراءة والحب والجمال وكأنه سارق النار. هكذا هي الطفولة، أنفس سخية تمنحك قلبها وضحكتها. لم يكن مستشعراً أنه كان مختطفاً، وكما تكبر خطايانا يكبر فينا الحنين إلى البراءة.

عندما استوى من رقدته داخل طوارئ المصفاة كان جلال بحاح ينحني لتقبيله مهنئاً إياه بالسلامة. ضحكاته السابقة لاعوجاج خطواته تزيح عن ممشاه أي كدر يتعرض طريقه.

فقد جلال فقرتين من عموده الفقري، وما زال يحلم باستعادة قامته الانتصاب كما كان قبل الخروج من حادث مروري أليم، وما زال مسافراً إلى أطراف الدنيا بحثاً عن عظمتين فقدهما.

تلفس فيصل كل أطرافه شاكراً لله متعة الصحة، ومتطلعاً إلى غدٍ أجمل:

– دورة الحياة بحاجة إلى موتي؛ فلماذا أحمل نعشي من غير استدعاء؟

لا تذهب بنا الأخطاء دائماً إلى أماكن الحسرة، فثمة أخطاء تنقلك إلى ما لم تكن تتوقعه. والحرص على تراتبية الصواب قد يخالطه خطأ يكون هو الصواب.

أصيب في أعماقه باهتزازة عنيفة. يقف على حلول كثيرة من غير إدخال الموت كمفردة مختارة. الآن أصبح يحس بالحياة.

حينما كان عجلاً للوصول إلى ثلاثة من محابس البراميل كان نسيان الصاعق الكهربائي هي لحظة توقف، فالأقدار ما هي إلا لحظات توقّف. ينشأ أثناء السكون فعل متحرك، فلا وجود للصدفة. فالصدفة هي لحظة التوقف المتولّدة منها معادلة الوجود... الحركة... الحياة... الأحلام... فكل حركة تتجه بنا نحو الفناء أو الحياة.

ومن أجل نشوء فعل ليتحول إلى دافع للحياة نسي جهاز الجوال في سيارته الخاصة، وبين الذهاب والإياب كانت لحظات توقّف تنبّه لها العاملون في غرفة العمليات وانطلق جرس الإنذار معلناً أن الأجهزة تسجل تسرباً في الغاز. في لحظات فاح الغاز في فضاء المكان كرائحة البيض الفاسد يخالطه نتن لا تقوى رئة على إدخاله إلى قصباتها الهوائية، ولخطورة استنشاق ذلك الغاز كان عامل الصيانة على حرفية عالية عندما تقاسم

أنبوبة الأوكسجين مع المصاب بإغماءة الذي وجده مستلقياً بين برميلين وبيده جهاز جوال لو استقبل مكالمة حينها لما بقيت ذكرى ثقال على مستوى المدينة كلها.

– بوذي أنقذ حياتي!... كيف؟

الله هو خالق الحياة وحببها إلى نفوس عباده وكرّه إليهم الموت، وخلق جلّ القوانين لكي تستقيم الحياة بينما أوجد قانون واحد للموت!

ثمة رؤى مختلفة لما نتعلم وما نقول. هذه المليارات من الأنفس البشرية لا تخلق وتموت سدىً، أو تُخلق للعذاب. ثمة قانون لا نعلمه أو لم نبحث عنه، ومقياس فتنة الخير والشر جعله الله متساوياً، فالخير فتنةٌ أيضاً. والرجعة إلى الله لا أحد يعلم نتائجها إلا عندما نصل إليه.

– استيقظ!

تربيت أكفٌ حانية وملامسة على خديه وعينيه تنتظر افتراق جفونه، والعامل البوذي تتسع ابتسامته لاحتضان ذلك العائد... الله في قلب كل خَلْقِه.

ضجيج المسعفين والعمال وزملاء المهنة الواحدة يردّدون بنفس الحياة:

– الحمد لله على السلامة.

غفا للحظات في برزخ منطقة التقاء بحرين لا يبغي أحدهما على الآخر. يرى اختلاف العذوبة والملوحة في

منطقة سلام تقبل أن يلامسها الخير والشر على أن يكون لكلٍّ منهما مصبّه. ومع عودة النفس كان بها شيءٌ ما عالقٌ؛ شيءٌ كالإلهام؛ شيءٌ كالرسالة الموجّهة للخلق: إنّ من الأخطاء ما يقودك إلى الصواب!

– عملنا مرهق جداً وخطرٌ جداً ولولا لطف الله لكان فيصل في عداد الموتى.

هذا صوت المشجّع الاتحادي (وجدي البكاري) الذي يقابل الخصوم والمؤيدين بحقيقة واضحة يختصرها بجملة:

– إن ما يحدث خارج الملعب لا يُعوّل عليه.

والفناء خطٌ خارج ملعب الحياة يغدو منطقةٌ لا يعول عليها.

مكث في غرفة الطوارئ ساعتين توافد عليه خلالهما كلّ من كان قريباً وحملوا أمنيات السلامة لمن كان بعيداً.

تمنّى أن تطول فترة الاحتفاء وأمنيات السلامة وتهافت القلوب عليك لتعضد جبر كسر خاطرك أو عجزاً أوقف حركتك. إنما هي ماء الوجود فليس هناك من يجبر خاطر ميت... الحياة هي ميزان الجدوى، و... لا جدوى.

سمع مؤذن الشركة يقترب منه مبشراً:

– المرض جنّة تكتشف فيه أن الله في ضيافتك وينادي خلقه لزيارتك.

قرّر أن يتمرّغ تحت قدمي والديه، فالكفر بهما بوّابة واسعة للكفر بالله، فهما يمثلان إعلاء نعمة الخلق وتوحيد الخالق.

عاد إلى البيت فوجد أمه تشكو حزنها وعقوقه:

– ثلاثة أسابيع ولا أراك! أليس لك نفس تحسّ بالفقد؟

كان يحمل جرابا مليئاً بالتراب وطلب من أمه أن تطأه وهبط يمرّغ وجهه تحت قدميها.

كان فعله ذاك مدعاة للدهشة:

– ماذا حدث يا فيصل؟

– سامحيني على ما فعلت من كسر خاطرٍ لك ولأبي.

كان يترقّب رؤية أبيه فقط لكي يرتمي في حضنه ويستمدّ منه الحياة، فالحياةُ مساندةُ قلبٍ لقلب.

– أين أبي؟

– لم يأتِ بعد.

كان الحاضر بينهما الدمع والدعوات.

في مركز الطوارئ ودّعه وجدي بقبلةٍ على جبينه هامساً له:

– نيتك طيبة وإلا كنت مثل الصرصار عندما يُقلى في مقلاة من غير زيت!

النفوس تتخلّص من ارتكاسها حينما تعلم أن الطليق منها أكثر عفونةً من الراسب في الوحل.

ولأنّ النفس لوامةٌ فإنها دائماً تبحث لها عن طوق نجاة، وهي تعلم أن الصدق منجاة.

مقولة لطالما فاتحه عمر بها:

– على المرء أن يكون صادقاً مع نفسه قبل الآخرين وتأكد أن الحياة تصفو حينما نحب.

هذا هو عاشق الكلمات المنمّقة، حتى وهو يتجادل مع الرعاع والسوقة لا يتخلى عن أناقة اللفظ.

احتدمت في الأعماق مجادلة بين ما مضى وما سيفعل في حاضره. كان فرحاً أن نفسه تثاب بأن تطفو على السطح، فأخذ ينتشلها رويداً رويداً من الانغماس في العنف والكراهية.

يتذكر جملةً قرأها لحمد التركي حينما كان يتابع مقالات الكتّاب، يستحضرها الآن:

– على الذين يصهرون الحياة بمقتهم الالتجاء إلى سفينة الحب فهي العاصم من الغرق في بحر التوحش.

وأكمل فيصل تلك الجملة بجملةٍ مكمّلة:

– تكون الكلمات أثقل ميزاناً لمن عاركها وجرّب تنفيذ وصاياها.

وقف ممتلئاً. لحظة الإيمان تمنح صاحبها الامتلاء الفوري؛ لحظة زمنية قادرة على تغييرك من حالٍ إلى حال. شعر بامتلائه وأن ثقل اليقين لخطوته بات يسمعه من خلال كل خلجةٍ من خلجاته:

– ما الذي يحدث؟ أكنت خاوياً خلال تلك السنوات؟ كنت أحفظ أجزاءً من القرآن وأسعى للخصال الحميدة وكنت أشعر بفراغ، كنت صنماً تخرج الرياح من جوفه فيصفر، أزداد ثقلاً بإيمان أن الله يغضب لتهشيم نفس خلقها.

ها أنا أعود للحياة؛ فكيف أصوّب أخطائي؟

كل حالة لها أخطاء. تذكّر أنه محا حياته السابقة حينما دخل المسجد، وها هو يفكّر في محو ما مضى من سنوات الغفلة مستبشراً بخروجه من رداء الموت.

كل خطأ دار في مخيّلة فيصل أبدى استعاداً لمحوه إلا ذلك العشق لا تطاوعه النفس على قلعه أو التجفف من بلله بل يسعى إلى أن تتمدّد جذوره في كل خلية من خلاياه، وكلما قرر الطفو من حالة الغرق التي يحياها في العشق كلما تصور انغلاق السنين وضمور بهجتها، فيتراجع سريعاً ويندم على أنه فكّر في ذلك.

كان متأرجحاً بين العشق والاعتذار؛ بين الإقلاع و الانغماس.

"ما زلت أنتظرك منذ زمنٍ طويل، خلف الباب الموارب أو من سطح المنزل، ولو جرّبت اختبار انتظاري لك ستجدني في الموقعين."

هذه من الجمل التي همست له بها حينما وجدها تنتظره خلف الباب بعد فراق دام سنة كاملة.

داهمته رغبة النظر إلى السطح، فمنذ إتمام بنائه ومنذ توأمة جداره بجدار فايز لم يلقِ عليه النظرات المتفحصة لزواياه أو الواجهات المتقابلة.

في صمته الذي يجترّ فيه الكثير من هواجسه، نبّهته والدته:

– في أي شيء تفكّر يا فيصل؟ أخبرني.

– رضاكِ أنت والوالد، هذا ما أفكر فيه وكيف أمحو عقوقي لكما.

حوّطته بين ذراعيها وكانت على نية قراءة المعوّذات حينما تخلّص من حضنها بلين:

– متى يعود الوالد، محتاج أن يصفح عني.

– ليس من عادته التأخر.

– سوف أصعد إلى السطح قليلاً.

الأمهات، كالأرض، لا يمكنهن رفض ما يسقط عليهن، فكيف ببذرة بقيت في تجاويف الزمن وعادت علّها تنهض كحلم نبتة في أن تكون شجرة ذات قطوف دانية.

مُقدِمٌ على لقاءٍ تأخّر شهرين ولا يعرف هل سيجدها منتظرة كما أخبرته أم يتأخر اللقاء ريثما تسنح الفرصة.

كان يؤجل محاكمة أبيه منذ أن عرف قصته مع قطوف، وكان يقسو عليه منذ أن أدين بجرمه، لم يكن بينهما حوار فالعادات تمنع الصغير أن ينظر في عين الكبير، فاستعاض عن هذا بلومه في خاطره كل لحظة، ومع الجبروت والسلطة اللتين تحلّى بهما فيصل استطاع سحق أبيه من غير الحاجة إلى فتح ملفات الماضي، فقط كان يودّ معرفة لماذا لم يعترف بارتكابه ذلك الجرم الذي ظل معلقاً في ذاكرة الزمن يستحضره الناس كلما جاءت سيرة قطوف.

شاغله سؤال مشاغب: هل يبقى على الحياد من قصة أبية وقطوف؟

الآن وبعد أن عاد من رحلة الفناء أيقن أن الماضي ركام نفايات ليس به شيء يصلح أن تستعيده.

– اللحظة هي الحياة.

الأيام الماضية تسارعت كما لو كانت تريد عبور لحظةٍ قاتلة، كان قطار الأحداث قد تباطأ لكي يمكّن فيصل من سماع شكوى خالته ياسمينة:

– ما نجمعه للمجاهدين لا يذهب إليهم، بل إلى جيوب بعض المشايخ.

هذه الصدمة كان باستطاعته القفز عليها لو أنه نجا من بقية الصدمات التي ظهرت على بعض الناشطين من مشايخ ودعاة، تكشفت بعض الحقائق وهو منتشٍ بقرب تحقيق هدفه وتفجير المصفاة.

مع انتشاء تلك الحالة رضخ لنهايته حين آمن أن الجهاد حالة إيمانية فردية لا تبحث عن مكسب أو منة على أحد. كان ذلك في زمن ذهابه إلى الفناء مختاراً، أما وقد عاد إلى الحياة فثمة مواقف كشف وتعرية ما زالت تتولّد.

انعطف إلى غرفته الخاصة ليصلح هندامه فطرأت عليه فكرة تشذيب ذقنة:

– لو وجدتها هي من سيشذّب ذقني.

حمل مقصّاً صغيراً وصعد إلى السطح متمهلاً ومنعماً النظر.

هاجت الجهة الغربية لتوديع شمس مكثت زمناً وحان انتقالها إلى زمنٍ آخر، فتدافعت السحب لتغطية تبعثر ضوء تلاشت صفرته وأوشك على الاختناق... كان شفقاً حزيناً لا يحفل بمدائح الشعراء، إذ كيف للموت أن يكون جميلاً؟

بيت فائز البيشي المتساوي في الارتفاع والمحاط بجدارين شمالي وغربي وأثناء تفحص الفجوة التي أحدثها البناء جابر ظهر نفق يوصله إلى بيت فائز من الجهة المنخفضة التي لا تمكّن الراصد من رصد ما

يحدث. لم يكن يعنيه من هذه الخطوة سوى الالتقاء بعينيها وليحدث بعد ذلك ما أراد الله له أن يحدث.

جال ببصره باتجاه بيت فائز، وعلى القرب من تجاور السطحين كانت تجلس منكسةً رأسها وجديلتاها الكثيفتان تشاغبان جيدها، وانشغلت أناملها بغزل شرشف تناصف تطريزه برسومات شغلت جوانبه العلوية:

– بس... بس... بس...

نهضت رقبتها وقامتها ولهفتها ثهلّل برؤية عينيه المصوبتين نحوها، وتقترب من فجوة موازية لسطح منزلهم:

– يا الله كم اشتقت إليك! ليلتين أحلم بك وأدعو الله أن يسلمك من كل مكروه، فقد سمعت أمك تشتكي من غيابك.

صعدت إلى صندوق صغير كان مقذوفاً من غير فائدة فإذا به يغدو معراجاً لقلبين أثقلهما الوجد. تمايل جسدها فوق الصندوق، وأخذت تمدّ يدها حتى تلامست أناملهما.

– ألا تكفّين عن الانتظار؟

– وأنت، ألا تكفّ عن نسيان النظر إلى ساعتك وتتذكر أنني أنتظرك في كل حين؟

تنقّل ببصره خلفها هامساً:

– رأيت أباك.

– أين؟

– أحمل إليكِ اعتذاراً قديماً عفا فعله أبي ولك اعتذار بعد أن عرفتُ كيف ظلمكِ.

– أتقصد قصة الكيلوت؟ ألم أحدّثك عنها من زمن...؟

– أعلم وكنت مصدّقاً لكل ما تفوّهت به إلاّ...

قاطعته وعيناها لا تزالان معلقتين به وهي تتأرجح على الصندوق:

– إذن دع المقادير تجري في أعنّتها. لم يعد في البال إلا أنت. قل أين رأيته؟

– في الشرقية.

– وما الذي حملك إلى الشرقية؟

مازال الشوق يتمدد ليرخي أطرافه بينهما، ومازالت العيون مصوبةً كلٌّ منها تنهب من ملامح الأخر... مازال المكان يضجّ فرحاً بأريج قطوف ووعد بتطاير شعرات من ذقن فيصل...

فجأةً، ومع ابتلاع الجهة الغربية لقرص الشمس، ارتفع صوت سليم محروقاً تكثر فيه الحشرجة والألم:

– يا شيخ فيصل... يا فيصل!

لم يستقر في وضع معين، وتمايلها على الصندوق قلّل التركيز على ما كانا يتفوهان به، فتراخت أناملهما، وطلب منها الانتظار لبرهة.

– انتظريني هنا للحظات؛ لحظات معدودات.

وهبط ملبياً جرح صوت أبيه.

كان صوت سليم يرتفع من الدور الأسفل منادياً ابنه؛ جاء صوتاً متهاوياً حزيناً بينما الطرق العنيف يتواصل على الباب الخارجي:

– أناس يقولون إنهم أصحابك. افتح لهم الباب قبل أن يتهاوى على أيديهم.

عندما أفاق من استنشاق الغاز السام كان وجه أبيه يطفو في الذاكرة ويجذبه إليه: الآباء سلالم صعود للأبناء.

استعاد سلاسة استنشاق الهواء كما يريد من غير الشعور بوخزٍ حادٍّ يتمدّد في رئتيه. طالب ببعض الوقت استجابةً لصوت أبيه وذلك الطرق المتواصل على البوابة الخارجية، ولم يكن راغباً في التخلّي عن تلك اللحظة التي جمعته بقطوف.

الطرق المفزع أربك الوقت والمشاعر، فهل تكفي اللحظات أن تتمدد ليؤدّي أمرين ملحين. هزأ من نفسه حينما أدى أموراً كثيرة أثناء انشغاله بتفجير المدينة!

سباقنا مع الوقت تكون محصّلته سكون الحدث أو تحرّكه، فلو أمسكنا بآلة الزمن ستكون كل الأحداث بجمال الماضي الذي مضى بعيداً عنا حتى ولو كان كريهاً أو مؤلماً، فمضيّه راحةٌ لنا.

سارع بالاستجابة للطرق ليس لمعرفة من وإنما خشية تهاوي الباب على أيدى الطارق كما قال أبوه.

صدمة لم يكن يتوقعها أن يجد الشيخ أبا الدرداء وبمعيّته الشيخ أبو البراء المصري وذلك الرجل المفرط جداً (الذي التقاه في الشرقية) ومعهم شاب ظهرت عليه علامات الإنهاك الشديد.

لم يكن مستعداً لرؤية كل هذه الوجوه دفعةً واحدة.

وقفوا عند الباب تحرّكهم رغبة اقتحام البيت والمداراة عن أي عين عابرة، يحمل كلٌّ منهم أدوات ملفوفة بخيش وحقيبة لها طول غير عادي ويستعجلون الدخول.

– دعنا ندخل أولاً.

أوجس منهم خيفةً. لم يكن الشيخ أبو البراء المصري على دراية بمنزله، حتى ذلك المفرط جداً فهو من سكان الشرقية، والشاب المنهك لأول مرة تقع عيناه عليه. وتأكّد أن دليلهم هو أبو الدرداء، فمن بَعدِ كانت خطواته تخبّ في السير للحاق بهم.

العجلة الظاهرة تزيد احتمال التوجّس، وهؤلاء النفر ظهروا في وقت لم تكن أعصابه مسترخية ولم يكن مستعداً لمشاعر الشدّ أو الجذب، فخرجت كلمات الترحيب متخشّبةً باردةً، ويبدو أن الضيوف لم يكن يعنيهم من تلك الكلمات إلا بابٌ يُفتح على مصراعيه لاستقبال حمولتهم التي ناؤوا بحملها.

نشط كلٌّ منهم في إخراج ما كان يحمله من متاع، وأخذوا وضع الاستعداد. لم يكن فيصل ملفاً بما يحدث، داخلته الفجيعة عندما رأى خمسة رشاشات تُسلّح ثلاثةً

من ضيوفه بها وبقي في داخل أمتعتهم رشاشان وثلاثة مسدسات وعددٌ من القنابل اليدوية وأحزمةٌ ناسفة وجوّالات وأوراق نقدية. تقدّم ذلك الشاب المنهك لمقدمة المجموعة ليأخذ وضعاً مناسباً كي لا يخطئ في حركة تؤدّي إلى تفجير الحزام الناسف.

ظهر الجزع على محيّا فيصل:

– ماذا يحدث؟

لم يجد إجابةً سوى رشاش الشتائم المنطلق من ذلك المفرط في السمنة والشتائم.

شعر فيصل أن إعلان مغادرة الحياة تطوف لتثبت علامة الرحيل لمن سيغدو ماضياً. تأسف أن لحظة الاسترخاء لم تدم طويلاً، فاللحظة سرعان ما تقفز من زمنها إلى زمنٍ أخر.

"قلتُ لها لحظات وأعود إليكِ، فهل ستمزّ اللحظات بإزهاق روحي من غير أن أفي بوعدي لها."

يتولّد الارتباك من حيث لا يعلم، فكل الأشياء تتهاوى وتتداعى.

"لحظة الموت تكون نتيجتها أنّ عقرب الوقت يلدغك ويمضي."

الاستقبال والاستدبار وجهان مختلان في ميناء الساعة، إذ إن كلاً منهما يعطيك النتيجة ولكن بعد فوات الوقت حين لا تستطيع العودة مرةً أخرى.

ارتباك المجموعة وحلول الأمر الداهم يجعل المشاعر تهذي. كلٌ منهم صرف مئات الصور من مخيلته لخلق

نهاية للموقف الراهن لكنها لن تجدي في تجربة كل التخيلات المتوقّعة سوف تمضي بعد عرض مشاهدة صورة واحدة.

تذكّر حماقاته حين هشّم كل شيء: التلفزيون والدش والمسجّل والهاتف والجوّال، وكأن أعظم تلك الحماقات إلغاء رقم جوالها. نستشعر بفداحة حمقنا حين نقف عليه فقط؛ عندها نعرف أننا نقف على لغمٍ زرعناه بأيدينا.

لم تكن اللحظة مناسبة لمفاتحة أبي البراء عن مصير الأموال المنهوبة. تبادلا النظرات، وإن كانت نظرة فيصل تشي بالندية، ندية فطن لها أبو البراء وأراد استعادة نظرته الصارمة في إخضاع الأتباع لإشاراته.

– لكي تكون على دراية، نحن متابعون، فخذ استعدادك.

ألقى أبو الدرداء جملته وكأنه يتخلّص من مغبّة ما سوف يحدث.

في حمّى الهذيان التي تعتريهم لم يكن الكلام موجّهاً لأحدٍ بعينه. هو كلامٌ لتسكين النفس الفزعة، تسكين الذات كي تهدأ وتُقلع عن جزعها.

فجأةً ضجّت أصوات السيارات والمكبّرات وتوالد ضجيج أمام بيت سليم. كانت نظرةً واحدةً كفيلةً بإرسال رسالةٍ وحيدةٍ كُتبت بالخط العريض: الخطب جلل!

قابله انبعاث صوت الشيخ أبي البراء المصري يحفز المجموعة:

– لا يمكن أن نفقد الثقة.

ومدّ يده للمبايعة على الاستشهاد فتشابكت أربع أيد وظلّت يد فيصل عازفةً عن ذلك الأمر:

– انظروا، الدولة كلها تقف لكم خارج المنزل!

ردّ عليه الشيخ أبو البراء بحزم:

– لا تُثبط عزيمتنا، فنحن لا نقاتل بعددٍ ولا عدة ولكن نقاتل بهذا الدين.

وتدخّل أبو الدرداء يُعيب على فيصل:

– لم تكن صاحب فكرة نسف مدينة جدة بالكامل...

مُذكّراً إياه بتلك التقارير والخرائط التي كان يحملها:

– أخوَارز في الحقّ أسدٌ على الورق!

تهكّم فيصل في داخله: لو يعلم هذا الأحمق بأنني عدت من الموت لأكتشف زيفه وزيف الآخرين.

وقبل إعلان أبي الدرداء إقامة صلاة الخوف تضاعف إعياء الشاب ولم يعد يطيق البقاء في وضعية الاستلقاء. كان يمسك بالكلمات ويُرسل عينيه تجوسان في الوجوه، فتصله وجوهٌ كدرة لا تستبين من ومضات عينيها إلا إعلان أنها على وشك الانطفاء.

تذكّر فيصل صلادة هذه العقول، متذكّراً أنه لم يتخلّ عن انغلاق الدماغ إلا منذ ساعات. اتّخذ قراراً بمسايرتهم على ما يحبّون. كان يعلم تماماً أنهم لو اتّخذوا موقفاً منه لقتلوه قبل أن يطلقوا رصاصة واحدة

على الخارج، فرفع استغفاره معلناً إنابته وطلب من الشيخ أبي البراء أن يمدّ له يده للمبايعة على الاستشهاد.

نشط عقله في ما يجب فعله لإنقاذ أسرته قبل إنقاذ نفسه، ونازعته رغبة في أن يرى عينيها لآخر مرة حتى إن كانت النهاية... يكون قد وفى بوعده لها بأن لا يموت بعيداً عنها.

الوعود، كالحماقات، تُمكّن المرء من وضع القيود حول أطرافه ولا يعرف أنها تُدخله في لعبة السكون والحركة مقيداً.

عندما علمت برغبة فيصل في الانتقال إلى العراق قطفت منه وعداً أن لا يغادر عينيها إلا بعد أن تسبقه في الإغلاق.

– قل: أقسم بالله أن لا أذهب إلى العراق!

أخذ بالبحث عن طريقة لينة لاسترجاع زمام التصرف مفكّراً كيف يسوس تلك العقول كي لا تثور عليه:

– أنا أعلم منكم بالمكان، أعلم بمداخله ومخارجه...

تخلّى له الشيخ أبو البراء عن قيادة المجموعة لتأكيد أن فيصل أعلم بالمكان عسى أن يتدبّر مخرجاً يتسللون منه بعيداً عن أعين رجال الطوارئ الخاصة، ولم يكن هذا التنازل إلا بتقديم رهائن كي لا يخون من سلّموه رقابهم. ولم يكن بمقدور فيصل سوى الارتهان لشرطهم، فلحقه الشيخ أبو الدرداء:

– قل لأسرتك إنهم رهائن وأن لا يحاول أيٌ منهم الخروج من البيت، فسوف يتم تلغيم الباب.

كل الاحتمالات أسقطت من يد فيصل، كان يسير كدميةٍ معطوبة. بلّغ الرسالة مسامع والديه وأخوته، بلّغها والدمع يفيض من عينيه وكلمات الاعتذار عاجزةً عن الخروج.

تلصّصت المجموعة على ما يعجّ في الخارج فهالهم المنظر الصاخب بالسيارات والعساكر والناس والأضواء الكثيفة.

فتح ذلك المفرط في السمنة شدقيه بكميةٍ هيّنة من الشتائم بينما كانت عيناه تتلصصان على ما يضج به الشارع المقابل، فاتّسع محجراهما:

– كيف حدث هذا ولا يزال دخولنا إلى المكان طازجاً؟ كيف وصولوا بهذه السرعة؟ هل فعلاً رجال المباحث يستخدمون السحر؟ إن كان هذا فعلاً فلا بدّ أنهم سخّروا ساحراً كبيراً لخدمتهم!

على كلماته تحرّك الشاب بحذر، كان مرعوباً وضائعاً وراغباً في التخلّي عن الحزام الناسف، فأصدقاؤه يحملون فرص النجاة حتى لو أُطلقت عليهم النار، أما هو ففي كل لحظة يتصور تناثر أشلائه في المكان، ولم يكن هدفه الموت في منزلٍ شعبيٍ غائرٍ وسط الأحياء.

– لو استطعت تنفيذ مهمتي في الشرقية لكان هناك معنى لجهادي.

جملته تفوق إعياءه بمراحل إذ فتحت شهيته للحديث عن آماله الجهادية، وبعيداً عن التباكي كان اقتراحه منشّطاً لمخيلاتهم في تصور الوضع:

– ما رأيكم أن أنطلق إلى صفوف العسكر وأنسفهم جميعاً، وأنتم تدبّروا فرصة الهرب؟

نظن أننا نفعل الأشياء صدفةً، بينما لا ندرك أن ثمة معادلات لا حصر لها نكون في كلٍّ منها عنصراً من عناصرها، حتى إذا حصلنا على قيمتنا العددية تكون النتيجة واحدة لكل فعلٍ نُحدِثه.

"لا شيء يخضع للصدفة."

والمعادلة الآن تقتضي أن يكون فائز هو المراقب وسليم هو المحاصر.

وكما هي حال صاحبيهما، تخاصم البيتان كلٌّ منهما يعطي ظهره للآخر، نقطة التقائهما عند جدارين (شمالي وغربي)، وكان كلاهما يتمنيان لو أن الجدارين واصلا تعامدهما إلى أن يبلغا السحاب.

في السابق كان بيت سليم لا يجرؤ على التطاول، مكتفياً (بكرنيش) يغطّي هامة الدور الوحيد؛ فرِقّةُ الحال لازمت سليماً وألزمته ببقاء الوضع على ما هو عليه، وعندما اختطّ فيصل جزءاً من حوش أبيه شيّد دورين إضافيين فتجاور سطحا البيتين، وأثناء البناء أحدث المعلم جابر خللاً جعل حدود البيتين من الجهة الشمالية تضيق وتتسع، تضيق في بيت سليم وتتسع في بيت فائز؛ خللٌ كوّن نفقاً بين البنائين لا يكاد يبين إلا لمن وقف على فتحتيهما.

صدفة البناء هذه لم تكن لتحدث لولا أنها عنصرٌ من عناصر معادلة، وقد وصلت إلى حلها النهائي وذلك

بإعطاء الحدث قيمةً مطلقة. ولا يهم هنا أن نذكر: الصدفة أو القدر.

تحولت الحارة إلى محشر. كل أهالي الحي ينساقون إلى نقطتين محددتين، فيما كان رجال قوات الطوارئ الخاصة يسارعون إلى إخلاء المنازل المحيطة ببيت سليم. كانت الأخبار شحيحة يلتقطها الناس من بعضهم بعضاً على غير هدى، وظهرت الدراية في من سبق له التعامل مع مثل هذه الحالة.

– مباشرة قوات الطوارئ لا تكون إلا لوجود جريمة إرهابية.

هذه المعلومة الطائرة سكنت أسماع المجتمعين فأكملوا من خبرتهم استحضار صورة فيصل في الحال.

تزوّد سامي عبد الباسط بمعلومة سمعها منذ فترة، أن قوة الطوارئ الخاصة تتغذّى على جهتين يزوّدانها بتحديد أهدافها: المباحث العامة وشرطة المناطق، وحضورهم يعني أن ثمة مشكلة تخص الوطن. وسارع إلى نقل تلك المعلومات لمن اختصهم برجاحة العقل من أبناء الحارة موصياً الأهالي بالتفرّق فالساعات القادمة لا يُعرَف لها توقّع.

ثماني عشرة ساعة وأربع عشرة دقيقة سيكون تجاوزها للوصول إلى الساعة العشرين أمراً مُخفقاً يستدعي التدخل السريع. قائد الفرقة شك في أن ثمة خطأ قد حدث.

نهض ممسكاً بالميكرفون:

– أطلقوا سراح من عندكم وسوف نوفّر لكم السلامة.

تكرّر هذا النداء مرات عدة. كان الوضع مغلّفاً بأجواء من الترقّب المشوب بالحذر. توزّع الجنود في مواقع مختلفة مصوّبين بنادقهم على نوافذ بيت سليم، وزرع أربعة على جانبي الباب الخارجي وستة على الأسطح المواجهة.

في الليل بدا المنظر أكثر رعباً من خلال كشافات الإضاءة الباهرة المسلطة على بيت سليم منفرداً فغدا كأنه بيت من الأحلام نفذ من براثن ظلمة فاقعة، وتكفّل وميض السيارات المرابطة بإبقاء الناس منجذبين حتى وإن ابتعدوا عن المكان المحاصر.

– يُقال إن فيصل قد فَخَّخَ البيت على عائلته.

وجدت هذه الجملة تصديقاً مدللين على صدقها بعدم ظهور أي فرد من أفراد أسرة فيصل. عدم ظهور سليم قلّل من انتشاء فائز إذ لا طعم لعقوبة لا يشاهدها المذنب.

مرةً أخرى كان ترتيب الجنود ومراوحتهم في مربّع واحد أكثر إنهاكاً للإرهابين، وكان القائد يعلم أن خطر المداهمة لا يخلو من التضحية، وكان يسعى للوصول إلى نقطة انهيار الاعصاب إذ كانت هذه النقطة هدفاً لإيصال المحاصرين إليها حتى لا يعود في داخلهم الصبر على أي شيء سوى الاستسلام.

المتجمهرون حفزوا رجال قوات الطوارئ على مهاجمة البيت، وتحولت هذه الرغبة إلى هتاف تردّد في أفواه الجمهور.

كانت أوضح مشاكل القائد غياب المعلومات: من هم الرهائن وأين مواقعهم وكم عدد الإرهابيين وأين يتمركزون وما نوع السلاح الذي بحوزتهم؟

تريّث القائد ومدّد الوقت ريثما يستبين أي معلومة تساعده على اختيار الخطة المناسبة، وأصرّ على مواصلة الحصار، ففياب المعلومات جعل مهمة الاقتحام شديدة الخطورة.

تمّت محاصرة البيت بما يكفي، وإغلاق كل المنافذ المؤدية إلى الهرب. اكتسب فائز مخالطة الجنود المرابطين لمجاورته الموقع المحاصر من الخلف، إضافةً إلى أنه تقدّم إلى القائد معرفاً نفسه بأنه السيّاف الذي أسقط عشرات الرؤوس حفظاً لأمن البلد، وأظهر استعداداً بوضع رأسه مقابل القبض على هؤلاء الإرهابيين.

– أستطيع التسلل من سطح منزلي إن شئتم، فثمة مكانٌ سرّي هناك.

هذا العرض الزهيد للمساعدة لم يجد حفاوةً أو تشجيعاً كما كان يتوقع، بل لم يلتفت إليه القائد بتاتاً، فاعتبر ما يحدث معه احتقاراً، فأضمر مشاعر الاقتصاص من القائد عندما تمكّنه الظروف من الوصول إلى رئيسه المباشر.

هدأ جيشان مشاعره الغاضبة عندما التفت إليه القائد:

– أهذا منزلك؟

كانت صدمةً غير متوقعة بتاتاً عندما أشار إليه بالتقدم، ومن خلال كلمات قليلة تضعضع ولم يعد مدركاً ماذا يصنع:

– أحد الخاطفين يصطحب امرأةً على السطح تحت تهديد السلاح.

انتقل الترقب والخشية إلى قلب فائز فاستشعر حدوث ما لا يحب، وإن كان مطمئناً على هيام التي خرجت في وقتٍ مبكر لزيارة صديقتها مها، ومع المداهمة لم تستطع العودة. هذا الاطمئنان قابله قلقٌ عظيم على قطوف، فهي الوحيدة داخل البيت، وأن ينبئه القائد بأن ثمة امرأةً رهينةً بيد أحد الإرهابيين فلن تكون الأوضاع على خير ما يرام.

ليلةٌ مشؤومة تجاوزت ثلاثة أرباع عمرها ولا تزال مشدودة الأعصاب تكتم أنفاساً ضيقة تُسهّل مهمة خروج زفيرها من صدرٍ ضيقٍ للغاية. قرّر فائز مخاتلة الجنود المرابطين من جهة الخلفية لبيته، فهم يعلمون أن هناك مختطفة، فسارع لإحضار زجاجات من الماء البارد. لم يكن لديه سلاح، حتى سيفه الذي تثلّم نصله وهو يحزّ رؤوس العصاة لم يعد في حوزته. تسلّل بخفة إلى داخل المطبخ وتسلّح بسكينٍ حادة كان نصلها لامعاً، وصعد الدرج.

"القلب يَعِدُ فخٌ العشقِ في غفلةٍ عن بقية الحواس."

غدا بيت سليم كمعصمٍ مخنوقٍ بأساور...

حبس الحرية كريه حتى وإن كانت القيود من ذهب. بيت سليم مكلّل بالضوء من كل زاوية وهو يشعّ داخل عتمةِ حوطته من كل مكان. تلك الأضواء تحولت إلى قضبان تمنع فرار البيت، فاستشعرت بقية البيوت بحبس حريتها أيضاً.

تراشقُ الأعيرة النارية والنداءات وتجمُّغ الناس والإضاءة الكاشفة والسيارات المتزاحمة وضجيجٌ يتعالى مع أصوات المكبّرات... ثبّت الصورة وجعل الانتظار سيّد الموقف.

الانتظار هذه هي الخصلة التي لا يحبذها فيصل بتاتاً، هي التي تفرض عليه أن يختار طريقة موته بعبور جمرات الوقت ليصل إلى نهايته.

أيقن فيصل من دخوله اللعبة أنّ عليه أن يكون ماهراً بما فيه الكفاية. صادق على مقولة وجدي بكّار بأنّ ما يحدث خارج الملعب لا يُعوّل عليه؛ وها هو داخل الملعب: كل لعبة محسوبة لك أو عليك!

تراجع بمخيّلته إلى الوراء؛ فما مضى من خطأ لا يصلح تصويبه خارج صالة الامتحان، فالخطأ لا بد أن

يُدوَّن في السجلات أنه خطأ. ويمكن تصويب الخطأ لاحقاً، إلا أنّ زمنية الخطأ لا تُمحى.

هو القائد الآن، وعليه أن يخطط لإدارة المعركة وليس من حق أيّ جندي مخالفة رأيه. طلب من الجميع اتّخاذ وضع الاستعداد وأن لا يغادر أيٌّ منهم موقعه ما لم يأمر بذلك.

وصل إلى قناعة حقيقية بأن يضحي بهذه الرؤوس الحمقاء كهديٍ يتوب من خلاله عن الأفكار الهوجاء التي مرّر له الزمن أخطر فكرة نخرت قحف جمجمته: نسف مدينة جدة!

طرأ بباله ذلك الشاب المجهد بحمل الحزام الناسف، عيناه غير مستقرتين وكأنهما تحولتا إلى ميناء ساعة ليس لها عقربا ثوانٍ أو دقائق، فاستعاض برفّة جفنيه لمعرفة الوقت الذي سيفنى فيه.

– الآن ينصبّ اللوم على مشايخنا، أولئك الذين فرّطوا في تعليمنا، فقد علّمونا طريق الموت ولم يعلّمونا طريق الحياة.

دار فيصل حول نفسه، واستوثق من الإمساك بالرشاش فيما كانت فكرة التخلص من أصحابه هي المسيطرة على كل خلايا تفكيره. أصوات سيارات الأمن ومكبّرات الصوت وضجيج المجتمعين كلها تشتت تركيزه وتسحبه إلى منطقة المواجهة المرغم على إتيانها... وجه أمه يطارده متحسّراً وتقترب صورة أبيه

وكأنه يرتدي حزاماً ناسفاً يُفجّر مَنْ حوله حتى تطايرت شظاياه على هامة قطوف.

استعدّ أبو الدرداء للمواجهة بحمل رشاش آخر وتحويل غترته إلى عمامة، ونشط في تمرير قصائد الحماسة لمسامعه أولاً ولمن رغب بالتزوّد بكلمات تُقال في أرض الجهاد. تذكّر الأشرطة المهولة التي اقتناها لندوات المشايخ وأشرطة للأناشيد التي طالما أنشدها مع رفاقه في المراكز الصيفية أو في الرحلات الخلوية. لم يرق لأبي البراء توزيع المجموعة وأراد استعراض خبرته المكتسبة في عدة معارك جهادية، فاقترح التخندق في الأرض. كانت فكرة سخيفة تدلّل على رقة تفكيره، فتمسّك فيصل بأنه أمير المجموعة وعليهم السمع والطاعة. تراجع أبو البراء إلى موقعه وفتح باب الانتظار. كان الوقت يمضي بطيئاً ثقيلاً كأنه رصاص مذابٌ يتقطّر في أذن فيصل.

تلغيم المنزل على أبويه وأخوه الأصغر جعله مسفّر الإرادة، ينزغه الشوق للعودة إلى مكانها: كم مضى من وقت وقطوف تنتظر؟ اللعنة على أبي الدرداء الذي حمل إليه هذه الكارثة! ازدحام الوقت بمهام متعاقبة جعل منه خيطاً واهناً لا يشدّ ولا يجذب.

صعد السطح محاولاً تفريغ اشتباكات الأحداث والوقوف أمام عينيها، وكعادتها حين تفاجئه بالظهور

من حيث لا يعلم كانت تقف في نهاية النفق وتناديه بصوتٍ منخفضٍ جداً:

– فيصل، تعالَ إلى هنا.

لم يحمد للبنّاء جابر أيّ صنيعٍ فعله طوال تشييده بيتهم إلا الآن، فمن خلال مفارقة أضلاع الجدران أحدث فجوةً توصل إلى بيت فائز. كان صوت قطوف يَلِحُّ عليه عجلاً:

– تعالَ من هنا!

وكنجمٍ وجد مجرةً تستقبل انتحاره لينفجر في ضوئها غير آبهٍ بتشظّيه هبط بقوة.

وكما لم يحضنها من قبل تساوى انهيارهما، كان الصمت يحفّهما وزفير رئتيهما يتبادلانه على أنه حياة.

كان مُخبّأً في حنايا صدرها، ولم تشأ أن يغادرها حتى ولو نُزع قلبها. أريج شعرها يفوح برائحة أرضٍ لم يسكنها بعد، كانت تبعده عن رؤية عينيها لكي لا يرى سهدهما وذبول عشرات الليالي فوق هدبيها. خرجت من وجومها:

– ما الذي يحدث؟ الدولة بأسرها تقف خلف بيتكم!

لم يشأ الإجهاز على اللحظات الدافئة بسؤالٍ وجواب، عرج على لقائه مع أبيها وبصورة مقتضبه سرد لها ما سمعه وكرّر ثقته بها حاطّاً من سفالة أبيه. سحبته إلى حضنها مبديةً الانشراح:

– لم أحب أباك أبداً إلا يوم أحببتك. لقد فعل شيئاً عظيماً أنه قدّمك لهذه الحياة تكفيراً عن ذنبه. نسيت كل العذاب الذي وصلني من ادّعائه، وبعد أن أحببتك كانت تلازمني غصّة أنني سبقتك في الحضور إلى هذه الدنيا. أووه لو تجاورنا في السنّ، كنت بعثّ كلّ سنين عمري من أجلك!

– أحببتكِ هكذا؛ أكبر مني سنّاً وحباً، وأشهد الله بأنك العفيفة.

ارتجّت عند سماع صوت الميكرفون يحذّر بالمداهمة إن لم يخرج الإرهابيون مستسلمين. كانت قد اطّلعت على كثافة رجال الطوارئ وتسلّحهم.

– ما الذي فعلته يا فيصل بروحينا؟

– جئت لودع الحياة على يديك!

خبطت على كتفه.

– لماذا لا تستسلم؟ أسألك بالله أن تسلّم نفسك.

– أصبح زمن الاستسلام خلفي؛ فالموت يقف على التراقي يا قطوف. لم يعد هناك من مفرّ!

كانت تحمل جوالاً وطرأت ببالها فكرة أخذت تستأنس رأيه في تنفيذها:

– ماذا لو سلّمت نفسك مختاراً قبل أن يقدروا عليك؟

سارعت إلى جوالها لإجراء مكالمة تلفونية، وكانت في عجلة وهي تتحدث مع امرأة وتسألها عن زوجها

وكيف له أن يقدّم لها خدمة العمر. تجادلا أثناء المحادثة وكشفت لمحدثتها أنها تطلب توسطه في قضية تخص أمن الدولة، وترجوها بحرارة أن تحدثه فالأمر لا ينتظر مزيداً من ضياع الوقت.

استمع فيصل لتلك المكالمة واستشعر أنه أبطأ كثيراً عن أولئك ..... فتش في ذاكرته عن وصف يصفهم به فوجد أنّ مفردة "الحمقى" هي الأقرب إلى ذاكرته. كانت خشيته على أسرته تفوق خشيته على نفسه. طلب من قطوف شيئاً من الانتظار ريثما يعيد الترتيب في هذه الورطة. كان يظن أنه قادرٌ على تدمير كل الحياة من أجل معتقده، وها هو الآن يتراجع عن ذلك الإيمان بما رسخ في تلك العقول.

– قلت لك أصبحت أعشق الانتظار من أجلك، فأنا لا أفكّر فيك إلا وأنا أنتظر.

عاد إلى المواقع التي توزّع عليها الشيخان وذلك المفرط في كل شيء والشاب المنهك. خلق لدى كلٍّ منهم اطمئناناً يوازي جزعه. كانت لديه فكرة يعطّل بها الضرر الواقع على أسرته.

– ما رأيكم باطلاق الرهائن ثم التسلل من موقع اكتشفته في دورتي السابقة؟

امتنع الشيخ أبو البراء عن مناقشة أي فكرة سوى مواجهة الكفار إن لم يعد هناك من فرصة للهرب.

الرجل المفرط سمنةً لم يستقرّ على حال وكلما تموضع في مكانه شعر بالإرهاق والاحتياج لتغيير وضعيته ساكباً الشتائم لجميع العسكر، ويبدو أنه قد استهلك شتائمه فاقتصرت على كلمات محدودة وانشغل بأمنية الاستلقاء؛ أمنية باتت عزيزة عليه.

الإجهاد بلغ مداه وغدا انتظار اللحظة ترقّباً من غير أي عمل يمكن احداثه. نشط الشاب في تهديده:

– دعوني أخرج إليهم لأفجّرَ نفسي فيهم.

كان صوت فيصل مطرياً جفاف فزعهم:

– سوف أبحث عن منفذ، فلا يتحركنّ أحد من موقعه.

حاك فيصل فكرة الاستسلام التي تحدثت عنها قطوف فقرّر تنفيذها. تسلّل بخفةٍ وحذر فوجد قطوف لا تزال تنتظر في موقعها:

– كالعادة كنت أنتظرك. أنت لا تحب الانتظار ولكنك علّمتني أن أحب الانتظار.

صوتها لم يكن ريّاناً كسابق عهده، وقد نشطت أطرافها مدللةً على كمية القلق والتوجّس اللذين يجتاحان فؤادها. تجاورا بقامتيهما وانشغل عنها بإجراء مكالمة سريعة مع أبيه وأنهاها على عجل:

– أرجو أن تبقوا في الداخل مهما حدث، وتذكّروا أن الباب مفخّخ.

كانت أذناه تتخلّصان من اللوم والتقريع، لم يعد الوقت سانحاً لسماعهما.

هوى قلب قطوف عند سماعها أنّ الباب المفخخ. كانت أعصابه تتجه إلى العطب ولم يعد يركّز على شيء سوء إيجاد منفذ يخرج منه مع أسرته.

يقين إعلان النهاية يدنو كثيراً، فالأصوات الخارجية تشي بما لم يكن في الحسبان.

– مستعدٌ الآن لسماع فكرتك، وقبل ذلك من يملك حظوة أن يتوسط في عملية إرهابية؟

– من كانت مواقفه وطنية، تلك المواقف جعلته قريباً من صنّاع القرار.

– وهل زوج أختك قريب من صنّاع القرار؟

– أظن ذلك أو أنه قادر على التواصل لإيجاد طريقة لتسليمك وإنقاذ أسرتك.

– من هو زوج أختك؟

– ربما تكون قد سمعت به، حمد التركي الكاتب المشهور.

ارتطم حجرٌ ضخم في أعماق فيصل وارتجّ كل عصبٍ ما زال ممسكاً به كي لا ينهار.

اقتربت منه تلاطفه:

– أفعل ذلك من أجلي. ألا تشعر بأني سأموت لو حدث لك مكروه؟

احتواها بين ذراعيه، بينما انشغلت أناملها بإجراء مكالمة لأختها.

لحظات مباغتة، سريعة، نهت لها العاشقان.

أطلّ فائز وبكل غلظة انهال بقضيبٍ معدني مهشّماً هامة فيصل رامياً بشرر عينيه وجه قطوف.

لم يتأخر كثيراً، قبض بيده اليسرى على غرة شعر فيصل ومرّر السكين الحادة على رقبته فتراشق الدم من حنجرةٍ اتّسعت لخروج غرغرة لم تُمكّن العينين من معرفة قاتلها.

كان فائز بشعاً وهو يجزّ الرأس ويحمله من غرته في هياجٍ مسعور:

– تخونيني مع الأب والابن يا فاجرة!

كان الدم لا يزال يشخب من البلعوم، والعينان جاحظتان لم تدركا من أوقف الحياة في أوردتهما، بينما تجندل الجسد ترف أعصابه مودعاً آخر النبضات.

دوّى صوت انفجارٍ ضخم تزلزلت له زوايا السطح وانهارت لبنات الجزء الجنوبي كاملاً وتصدّع الجدار الملاصق له، واختلطت الأصوات بكلماتها وصرخاتها، وارتجعت قدمي فائز فانثنى معاوداً الإمساك برأس فيصل المتقطّر بدمائه، وانطلق راكضاً.

كانت قطوف مأخوذةً بما حدث، احتاجت وقتاً لتستوعب أو تستدرك فجيعتها، فلم يستطع عقلها تحمّل تلك الفاجعة، فلحقت بفائز صائحةً، متخليةً عن عباءتها،

ناثرةً جدائلها، مقتفيةً آثار فائز عندما وقف لتقديم الرأس لقائد القوات الخاصة:

– كما جززتَ رجال جهيمان، ها هي زوجتي تجزّ رأس فتنةٍ جديدة... نحن أسرة مباركة.

وأطلق ضحكةً عميقة يخيّل لسامعها أن الطيور خفقت بأجنحتها بعيداً كي لا تسمعها.

هيام!

هي الأغنية المستعادة لذكرى شجن قطوف.

فلكل فترة زمنية عشق يطري قسوة الأيام.

فيما كان رجال قوات الطوارئ ينتظرون ما تسفر عنه محاصرتهم لبيت سليم، حدث انفجارٌ مهول وكانت العيون بحاجة لترتيب المشاهد التي حدثت في تزامنٍ واحد. دويُّ الانفجار بزَّ الأصوات فلم تعد الآذان تسمع سوى أنفسها، وتقاذفت الأشياء إلى الخارج والداخل، وانهارت لبنات الجداران وتساقطت النوافذ وارتفع الباب الخارجي عالياً، وتصاعدت الأتربة وتناثرت أشلاءُ أجساد وتراشقُ دماء... كان الانفجار فاصلةً زمنية استعاد الناس بعدها هرجهم ومرجهم وتفقّد ما أحدثه ذلك الدويّ المهول. وبينما كان المتجمهرون في حالة صعق سمعوا صوت فائز يصيح ويقترب في ركضه من تجمّع رجال القوات الخاصة قاصداً قائد المجموعة حاملاً رأساً جُزَّ للتوّ وهو يصيح معلناً عن بسالة زوجته ومقدرتها على جزّ رأس الفتنة، بينما ظهرت امرأةٌ من خلفه تنتحب بما يشبه بكاء الثكلى. ذلك المشهد غطّى على نتائج الانفجار وانجذب إليه المتجمهرون واختلطوا وكل واحد منهم يمنّي نفسه برؤية المزيد من الأحداث.

كان وضع قطوف متدهوراً للغاية. فبعد ملاحقتها ركضَ فائز وتمثيله برأس فيصل لم تعد تقوى على شيء

فسقطت متشنجةً بين كتلةٍ من الرجال المجتمعين واعتلى نحيبها مع انتفاض كل أطرافها وارتفاع وهبوط جسدها على الأرض. ولم تكن الكلمات كافيةً كي تخرج من فمها واضحة المعاني، ولم يكن نحيبها رحيماً بها، فوصلت إلى الانهيار. وكان الإغماء إغاثة لتردي حالتها فتجندلت كفارسٍ سقط على أرض المعركة ولم يعد مكترثاً كيف سقط، فسارع المجتمعون بإلقاء غترهم وشمغهم لستر جسدها الباذخ في ثرائه.

كان الانفجار سابقاً بدقائق معدودات، ومع انتحاب قطوف خلف رأس فيصل تكوّن مشهدان كلٌ منهما اجتذب جزءاً من المتجمهرين.

كانت الكلمات تتطاير والأسئلة تتابع، والدعوات حاضرة بكثافة.

كان شامي القاضي على مقربة من جسد قطوف المغطّى:

– مسكينة قطوف، اتّهمها سليم واختطفها ابنه.

أمّن على جملته كبار السن، بينما كانت حسن البركاتي يخترق الصفوف حتى وصل إلى مقدمتها واضعاً يده في وجه فائز:

– لم يقتله إلا أنت؟

كانت الأفواه تضخ الكلمات بأصوات متباينة فلم يسمع أحد ما قاله البركاتي بينما كان فائز يَجفّع كلّ ضحكاته في داخل أعماقه يحفّه بعض الجيران عندما تناقلته أيدي جنديين لإبعاده عن التجمهر المتزايد.

أثار الرأس المقطوع فزعَ كثيرٍ من المجتمعين فأسرع القائد بحجبه منادياً على أحد رجال الإسعاف بتدبّر أمر الرأس. ظل معظم المسعفين ينتظرون تلقّي أوامر نقل الأشلاء المتناثرة. اثنان من رجال الإسعاف تحرّكا صوب جسد قطوف المغطى بالفتر والأشمغة ظناً منهما أنها ميتة، فطلب منهما القائد التريث.

كاد فائز أن يلتهم رأس قائد الكتيبة عندما تساهل في طريقة نقل المصابين والقتلى:

– يبدو أنك ستخسر رتبتك عمّا قريب.

لم يلتفت لهياجه أحد، فقد كانت الأسماع والعيون تشهد دراماتيكية الحدث ولم يكن هناك متسعٌ من الوقت لأن ترتفع الكلمات صخباً أو مواساة. فمع ظهور أسرة فيصل وانتقالهم إلى إحدى سيارات الاسعاف أصرّ سليم على الانتقال مع رأس ولده. شماتة فائز لم تصل إلى غايتها، وسرعان ما فاض غضبه على القائد وعلى رجال الإسعاف معاً، ولم يستسلم لتدافع رجال قوى أمن الطوارئ حينما أبعدوه عن سيارة الإسعاف المنطلقة.

سليم وقطوف ورأس فيصل تمّ نقلهم في سيارة إسعاف واحدة.

* * *

لم تعد قطوف إلى حالتها الطبيعية بتاتاً، غدت فاقدة الأهلية في كل شيء، تجلس داخل البيت صامتةً، تمسك بجديلتها للحظات ثم تنطلق صرخاتها المتعالية.

داهمت هيام فكرة انتهاء المباراة بانتصار الأسود... انتشت قليلاً.

كان الصمت حاضراً، وقد أوكلت لكلّ نفسٍ نفسَها.

انشطر وقت هيام بين قلبين، هي ميّالة لأبيها، توسد ضعفه بحنانها كي يفيق من انكساراته المتوالية. كانت تعلم أنه غارق في هوى قطوف وبسبب ذلك الفرق أصبحت الابنة الوحيدة لهذا الرجل المحطَّم إذ لم تقبل قطوف التقاء جسدها بجسده إلا في ليلة الدخلة ويبدو أنها أخذت على حين غرّة.

قطوف تجلس أمام النافذة مباشرةً، تسرح بعينيها علّها تلمح أحداً يقترب من جهتها، فترى العابرين يمضون من غير أن يلتفت إلى جمالها أحد. ترى في الجهة الأخرى نافذةً مشرعة يجلس في مواجهتها ياسر البكري ويتبادلان النظر بأسى ويظلّ هذا حالهما ولا يُنهي هذا المشهد إلا مجيء هيام التي تسارع لإغلاق نافذتهم مصطحبةً أمّها إلى الداخل.

الأسى يداهم هيام برؤية أبويها الصامتين، تتلقى كلمات معدودة من أبيها وأوقات يحتاج أن يحضنها حتى إذا غارت في صدره تناشج وأخذ في البكاء.

ظلّ أبوها نزيل الغرف الخلفية من المنزل، فكلما أراد الاقتراب من قطوف هاج صوابها واندفعت غارسةً أظافرها في وجهه محدثةً ضرراً جسيماً بأي طرف تصل إليه.

مشاعر هيام تتأرجح بين أبويها وتميل لجبر انكسار أبيها، فهو لا يزال راضخاً لحبٍّ تغلغل في كيانه، حبّ أبقى قامته المشدودة الفارعة منتصبةً لكنه نخر روحه نخراً فلا يستقيم له شيء.

سعدت لأيام برؤية جديها (لأمها) وخالتها ومواساتهم والحنو عليها، هي المرة الأولى التي تجمعها الظروف بأهلها فكانت تمسك الفرحة والبكاء في آن.

رأت في خالتها تجدّد الحياة وانطلاقتها، كانت ملامحها تقترب من قطوف وتتفوق عليها بتوهّج محياها، هذا التفوق سرعان ما انهار حينما دخلت إليهما وهما تتجاذبان ذكرى رحلة ركوب الحمير والتقيؤ على صدر أمهما وقرصها المتواصل لأطرافهما. من زمن طويل لم تزَ انشراح وبهجة أمها، كانت صامتة إلا أن روحها كانت تركض على ملامحها بعدوٍ خيلٍ لا يملُّ الركض:

– لقطوف روحٌ آسرة لولا أنها وقعت في فخ!

استشعرت بسمة فداحة جملتها على نفسية هيام، فنهضت تحضنها محاولةً إبعاد الفكرة التي استقرت في رأسها:

– أنت فتاة وستعرفين ما قاست أمك.

لم تطب نفساً بما سمعت إلا أنها طابت بحيوية خالتها وانجذابها للمرح.

انجذبت إلى جدتها لأمها وشعرت معها بالطمأنينة والدفء ولولا نصاعة بشرتها لامتزجت بروحها تطابقاً

واعتداداً.

شعرت بتصالح اللونين واقتسامهما لوجدانها، فقد كان حضور جدتها لأبيها منفراً ومستفزاً، فلم تشعر معها بأي ذرة حب سرت في أعماقها.

– ربما لو حضر جدي لأبي لرمّم ما تبقّى من انهياراتي.

مع وداع جديها جذبها طارش إلى صدره:

– يا هيام، قطوف أمانة بيدك.

ساعتها شعرت بعمق أن تلك الصامتة هي أمها.

كان صراع اللونين حاضراً في مخيلتها فأخذت تميل لفكرة ترجيح لون جديها لأمها.

عاد البيت مقبرةً للأشباح وثمة ضوء باهت يصل إلى قلب هيام من خلال غرفة ياسر البكري فتسارع إلى إطفائه وتتهاوى داخل غيمة كثيفة.

في ليلة كانت تقف أمام ذلك الشبح الجميل ورأت دمعةً تسكن محاجرها رافعةً يديها نحوها فلم تتمالك نفسها وارتمت في حضنها. كانتا تبكيان لوقتٍ طويل حتى إذ جفّ الدمع تركا لعيونهما الاستزادة من بعضهما. كانت قطوف تسرح بأناملها بين تقاسيم هيام وتدقق في الملامح وكلما أمسكت جزءاً قارنته بأجزاء ملامحها.

في صمتها المطبق جذبت يد ابنتها وأوقفتها في صدر النافذة وكلما أرادت التخلص من قبضتها أبقتها

بين يديها. هذا المشهد كان الشاهد الوحيد على حدوثه هو ياسر البكري.

تخلّصت هيام من قبضة أمها وربتت على كتفها وانسلّت بعدما قبّلت رأسها.

غدت قطوف تجلس في وسط النافذةِ المُشرِعةِ درفتيها، وتتطلع نحو الشارع المؤدّي إلى بيت فيصل وتظل في هياج إلى أن تأتي هيام لتغلق النافذة وهي تحتضنها.

المرة الوحيد التي قامت قطوف بغلق النافذة بكل قوة حينما أقبل سليم يتهادى على عكازه باتجاه البيت.

لم يعد فائز يمانع وقفتها على النافذة، إلا أن هيام كانت تسعى إلى أن لا تفعل ذلك لسببين: انهيار أمها الدائم والتقاء عينيها بعيني ياسر المعلّق في مكانه منتظراً طلّتها.

تنقم على أي لحظة تُمكّن ياسر من رؤية عينيها، ولأن مداراة أمها من مهامها الأساسية، لما رأها أبد الدهر. كانت تسحب أمها من الأسفل لإبعادها عن واجهة النافذة وتغلقها من غير أن يراها ياسر.

فوجئت ذات مساء أن ثلاثة من الجيران ومعهم صالح البكري وابنه يقفون على بابهم، وبعد مغادرتهم علمت من أبيها أن ياسر يطلب يدها.

– لن أتزوج أحداً ما حييت.

تكرّر قدوم ياسر إلى منزلهم مرات عديدة، وفي كل مرة يخرج حاملاً رفض هيام الاقتران به، حتى إن سليم

الجمل تدخَل كجاهة فلقي ما لا يحب أن يسمعه.

انشغلت هيام بأمها التي كانت صحتها تسوء يوماً بعد يوم، وفي لحظةٍ تتهيج مشاعرها تنطلق نحو الباب الخارجي فتبقيه موارباً وتظلَ منتظرةً علَ فيصل يمر بجواره.

تحوّل ياسر إلى صنم في الجهة المواجهة لنافذة هيام لكي تتطلع إليه وتعجب بصنميته، وكلما انتصب أظهرت عزوفاً حاداً عن مشاهدته.

وبين نافذتي بيتي البكري وفائز ظلّ صنمان متقابلين: قطوف وياسر.

لم يعد الشارع بينهما زاخراً بالعشاق وكأن هذا الشارع غدا طللاً لا يبكيه إلا قطوف وياسر.

غابت هيام عن مناسبات الحارة وبقيت سيرتها على الألسن، فكلما قطع عابرّ الشارع الموازي لبيت فائز وجد أن وجهين ذابلين يتقاسمان النظر إليه. الكل وجد حجةً لوقوف قطوف في مكانها ذاك إلا أن الحكايات تفرعت وأخذت في قضم سيرة هيام:

– مسكين هذا الشاب، تولّع بحب قطوف.

هذه الشائعة لم تدم طويلاً. فبعد انتشار تقدّم ياسر لخطبة هيام مراراً من غير أن يحظى بالقبول ألصقت به صفة العاشق، ولما للشارع من تاريخ نبضاتٍ وجد مسكوبةٍ شقي بشارع العشاق.

– ماذا تنتظر من فتاة لا تكترث بك؟

هذه النصيحة تلقّاها ياسر من أمه منذ سنتين أو تزيد. كانت تحلم أن تزفّ ابنة أختها إليه، ذلك الحلم تبدّد وأصبح الحلم أن توافق هيام على الزواج من ابنها الذي غدا العطب يسري في قلبه.

– الحبّ ماءٌ يجري في قلوبنا ليمنحنا الحياة!

ربما كانت هذه الجملة هي المواساة الوحيدة التي باركت السير في شارع العشاق.

كلما مضى الوقت شعر ياسر أنّ حياته تُسحب مع ثوانيه:

– كم ثانية وقفتها وهي لم تظهر؟

العشّاق هم من يعرف عجلة الزمن وبطئه، وتستحيل الثانية جمرةً يتلظّى بها العاشق.

ملايين الثواني أنضجت أعصاب ياسر فغدا متفحماً. أخذ على نفسه عهداً أن يمسك لسانه ما بقي له من عمر، كان يستخدمه فقط حينما يأتي على ذكر هيام أو التوسّط لدى شخص كي يعينه على طلب يدها.

صام عن الكلام...

علّ الكلمات التي تفوّه بها في وقت مراهقة أن تُمحى.

في صمته ترد أطياف الكلمات كلٌّ منها مجتزئ، كلمات ملّت عبور الأزمنة ووصلت إلينا مضرّجةً بدماء من أصابتهم، وتلك الأفواه الناطقة غدت رميماً ولم تقبر معها كلماتها.

كلمات العشق هي الباقية فأوكل إليها تحزك الكون والحياة.

كيف لو تمّ استحضار أو استنساخ قلوب البشر من العهد الأول إلى الآن وتمّ تقطير الحب منها... فهل الملائكة هم أبناء ذلك التقطير؟

قلب أو قلبان يشاع عشقهما في كل عهد ليكونا شاهدين على جفاف الناس.

الصيام عن الكلام يضخ حقيقة وجودنا إذ لا توجد كلمات تنسف خلقاً أو تُميت حباً أو تُحيي كذباً.

صالح البكري عجز من إلقاء النصائح فرضخ لما يأتي به القدر. لام نفسه واستغفر الله على ذلك الخاطر الشيطاني البعيد الذي زار مخيلته حينما رأى فيصل سليم خارجاً من بيت فائز ومثجها إلى المسجد:

– شيخ تفتنه جارية!

كان يتأوه كثيراً كلما رأى ابنه قد أصيب بالداء نفسه.

أفطر ياسر عن صومه حينما سمع أمها تنثر أشلاءه:

– وهل تطيق نفسك أن تضع يدك بيد فائز. في الغد سوف يلعنك أبناؤك وأحفادك كونك تزوجت "عبدة".

سرح ياسر بعيداً، عاد طفلاً يقتعد مقاعد الدرس في السنة الأولى من التعلّم، حين كان يتهجى الواقع عبر كلمات الموجهين والمعلمين. في تلك السنّ الغضّة قال معلمهم: لونان لا بدّ من معرفتهما فهما يرشدانكم في طريق الحياة: أن الله أبيض والشيطان أسود!

ردّد ياسر: أستغفر الله العظيم وأتوب إليه... تعالى الله علوّاً كبيرا.

وظلّ يلهج بهذا الاستغفار كلما طرأت بباله تلك الذكرى الموغلة في قرارة الزمن .

ومن ذلك المقعد القديم أخذ على نفسه عهداً بأن لا يسلّم على رجلٍ أسود قط؛ وها هو الآن يسعى جاهداً

أن تمتد يد فائز لكي يقبلها.

الأشياء المتساقطة تجذب بضعها بعضاً. يبدو أننا وصلنا إلى المصب، فها هي كل مصيبة تتجمّع من كل حدبٍ وصوب كي تستقرّ في بئر الوقت، وحين تمضي في مجراها ستكون ماضياً لن يتذكّره القادمون إلا تاريخاً.

عشرات السنوات والعذابات والتضحيات سوف تختصر في سطرٍ واحد أو دون ذلك.

سيرة نائمة لسليم

– أنا صاحبة "الكيلوت الأحمر".

كل رجال الحيّ سمعوا بذلك "الكيلوت" ووفق ما وصلني من أقاويل أن أيادي المسنين – قبل المراهقين – تناقلته وتعددت ألوانه في ما بعد وكل من أمسك بلون ادّعى أنني وهبته إياه.

هل أحتاج – يا سليم – إلى أن أذكّرك بنفسي؟ أما أنا فلم أنسك قطّ.

* * *

طوى الورقة بعناية ووضعها في أسفل جيبه الأيمن وهبطت قامته الفارعة على عكازه الشاكي من ثقله سالكاً زقاقاً ضاق وغدا طويلاً جداً، هذا الزقاق لطالما ذرعه شغباً وفتوة.

رسالة بالية مهترئة احتفظ بها منذ ما يزيد عن ربع قرن حملها – بجوار عشقه – أينما ذهب. بلي كل شيء فيها إلا عشقاً تجوّف وغار في الحنايا والضلوع، وشغفاً التفّ بأحشائه وتعسّر خروجه فظلّ كورم يتضخّم ويسدّ في وجهه مفارق الحياة... حبٌ لم يسمع به إنسان قطّ، حتى المحبوبة نفسها.

رسالة قديمة تخمّرت حروفها حتى غدت معتّقةً، تُسكره فيعود إلى تلك الأيام هائماً ضائعاً يبحث عن وسيلةٍ لنقض ذلك اليوم أو محوه.

لمح طيفها من خلف النافذة تصوّب حجراً بيدها البضّة ذات اللون الفضي ونقش الحنّاء العالق بقمم أناملها... حجرٌ سقط أمامه.

حجرٌ فيروزي ربطت به ورقةً من دفتر عشاق تضمّخت بعطرٍ اتّخذه خليلاً له يناجي محبوبةً لم يرها منذ أن احتجبت، ففدا ذلك العطر مؤنساً يغزل على رائحته صوراً متخيّلة من العشق. كلّ مرة تنشط فيها مخيلته ويستحضرها تأتي ملامحها ويأتي أريجها فائحاً من بين أصابعها ومن جيدها حين تنثني لتهمس له من خلف ستار الباب "وأنا أعشقك". كانت تلك الورقة عذابه الذي بقي معه وله كل تلك السنين.

رسالة حملها معه من ذلك اليوم.

في شبابه حشرها في لبدة مخدته التي ينام عليها، واستنفذ أريجها شفاً ولثماً. كان يغادر فراش زوجته إلى فراشٍ اتّخذه مخدعاً لذاته فقط. ومع مضي الأيام، وتغيّر الأحوال، نقل تلك الرسالة إلى خزنة دكانه، ولم يخرجها من ضيق المكان ورطوبته إلا الليلة.

مضت أيامٌ وليالٍ تزيد التباعد بينهما وثُبقيه على جرفٍ منهار، فيلمحها على الضفة الأخرى ترمقه بازدراء؛ في بيتٍ شعبيٍ اتّسع فناؤه وخارت لبناته وأوشك على الانهيار لولا مساندة البيوت الملاصقة له من الجهات

الثلاث (كان أهمها تلاصقها مع بيت قطوف). هذا البيت الذي تنبه إلى أنه غدا متهاوياً ولم يعد يبقيه متماسكاً إلا اعتدادُ قديم... هو لا يعتدّ بالبيت الذي شيّده فيصل وحرم على أهل بيته فتح بابه.

أخرج من صلبه ثلاثة أبناء وبنتين كانت أمهم تنظر إليهم كأجنحة سيحملونها إلى مكانٍ يبعدها عن عينيه الحادتين المشككتين على الدوام. إلا أن أكبرهم انكسر في مغامرةٍ طائشة زلزلت كيان العائلة، كارثة ابنها فيصل أبقت لها يقيناً أنها لن تغادر رائحة هذا الزوج الكريهة.

يسير في مسالك الحيّ عابراً متهاوياً غير مكترثٍ بمن يعبرون، مستشعراً تثاقل خطواته وجسده المتكئ على عكازٍ يسند قامته التي ملّت انتصابها فانثنت. اليوم كان محتاجاً إلى قوة الأمس؛ محتاجاً إلى أن يزيح أدمعاً تموج في حدقتيه.

فقطوف ذاكرته القديمة الجديدة، تخلّت عن مسايرته. كان يكتم نهنهةً مزقت ضلوعه، ويتحسّر:

– لولا طيش المراهقة وذلك "الكيلوت" الأحمر لما غارت حياتي في هذا الجرف السحيق.

ماتت قطوف...

ضرب الطاولة المحاذية لسرير نومه فتساقطت الأدوية وتناثرت بعض أقراصها. أخذ يعضّ على الكلمات الخارجة من داخله كحسرةٍ تجمّدت ولم تغادر زمنها.

– كيف مضت هكذا من غير أن تسامحني أو تسمع اعتذاري لتزيل من أعماقي هذا الخزي المعلّق بسيرتي؟

هذا ما استطاع الإسرار به لنفسه في عجلة، وهو يعالج مفتاح باب غرفته المغلق استجابةً لقرعٍ متواصل لاعناً ذلك الإلحاح.

تلقّى الخبر من ابنه الأصغر ولم يشأ إظهار انكساره فنهره بالابتعاد ريثما يضع ملابسه الثقيلة على جسده.

كان بحاجة قصوى أن يبكي بعيداً عن أيّ عينٍ ترصده، وما هذا الإلحاح على الطرق إلا يد زوجته التي تريد رؤية انهمار أدمعه والتشفّي برؤية تقطّع أحشائه، تلك الأحشاء التي آوت قطوف ونبذت وجودها. فمنذ ليلة قدوم ابنها البكر عرفت أنّ زوجها ليس لها، وأنها امرأةٌ ضمن عتبات البيت موجودةٌ وغائبة، امرأةٌ مهمتها إنجاب الأبناء والاعتناء بالبيت وتحييدها عن كل شيء له علاقة بالحب. وزاد حقدها عندما قيل إنها هي من قطع رأس ابنها البكر!

الطرق العنيف المتواصل على باب غرفته شاركه صوت ابنه الأصغر، أما الطرق فمنها.

عرفها خلال سنوات طويلة ولم يعد بينهما إلا التنافر: تخشى عينيه ويخشى البقاء بجوارها.

في يوم مقتل فيصل لم يعرف أبواه مصرعه إلا في وقتٍ لاحق، بعد أن تمّ تعطيل تفخيخ باب منزلهما ونقلهما عبر سيارات الإسعاف للاطمئنان على حالتهما النفسية.

انحنى الضابط على أذن سليم:

– لك العزاء.

– الحمد لله.

كلمة واحدة لم يسبقها أو يلحق بها أيُّ نوعٍ من أنواع الترحّم.

انضمّ فيصل إلى حفرةٍ تساوى فيها كل الموتى، تساووا في انبعاج بطونهم ومضغ وسريان النمل من منافذ أجسادهم ورائحة العفن المردوم عليه ترابٌ تصفّى من ليونته... مضى كلٌّ منهم بنيّته!

عمر من القلة الذين وقفوا على قبر فيصل، فاسترجع حوارهما عن الترحّم، ففاضت عيناه:

– من يسبق الآخر في الوصول إلى هذه الحفرة؟

في الموت ليس هناك سابق أو لاحق... فمعيار الحياة نسبي، فهناك الكثير من الأحياء الأموات.

جثا عمر على قبر فيصل ورفع يديه باكياً:

– يا الله! يا ربي ورب كل المخلوقات! كم أناديك بعزتك وذاتك أن تجعلني من المُفلِحين!

سليم لم يقف على قبر ابنه، في أول الأمر لم يستجب لتسلّم الجثة، أوكل مهمة تسلّمها لمن يرغب من أسرته الصغيرة لوداع فردٍ كان عاصفاً. فجأةً انقاد لفكرة دفن العقوق، ففيصل جسّد إسقاط رمزية الاعتراف بالموجد، فالكفر درجات، فإذا كفرت بوالديك فكيف تؤمن بالله؟

كان دفن جثة فيصل مسلسلاً من الإجراءات شارك فيها سليم وحده دون أيّ فردٍ من أفراد أسرته.

من البدء رفض إقامة خيم للعزاء، وسمح لزوجته باستقبال من تشاء من النساء على ألاّ يرفعن صوتاً ولا ترحماً، وعلى كل امرأة أن تؤدّي واجبها بصمت.

في اليوم الثالث على مقتل فيصل حرص على الذهاب منفرداً. فبعد التوقيع على تسلّم الجثة غادر المستشفى من غير مواراة الجثة، فتم استدعاؤه مرةً أخرى، فوافق على أن يدفن بمعرفة جهاز الشرطة، وما لم يُحقّق له ذلك الشرط فليظلّ في ثلاجة الموتى إلى ما شاء الله.

كان صوت زوجته جالباً للصداع، تطالب بإحضار جثة ابنها وتوديعه وتشييعه من بيت أبيه. صرامة سليم وضعت حدّاً لمطالبتها:

– إن جاء جثمانه إلى بيتي فستتبعينه إلى بيت أهلك.

هذا الانغلاق لم ينفذ منه أحد، حتى عمّه وبعض الجيران استمروا يجادلونه وهو يصدّهم فترك الأمر له.

لم يشأ سليم معرفة كيف قُتل ابنه، وتساهل مع إخلاء سبيل قطوف لفقدانها الأهلية. أيامَ المحنة عبرَ أسماعه الكثيرُ من الحكايات انتهت في مخيلته أن جميع الإرهابيين قضى عليهم الحزام الناسف الذي كان يحمله أحدهم وأن فيصل أراد الهرب من خلال بيت فائز فمات هناك ... لم يشأ ذكر قطوف في موت ابنه بتاتاً.

حجب موت قطوف كل ما فعله فيصل.

سار سليم إلى المنحى الذي يوصل إلى خيمة العزاء، واقتعد أحد المقاعد المتقدمة. التقت عيناه بعيني فائز فشبّ بينهما حريقٌ لم تخفت نيرانه. تشاركا في جرجرة زمنٍ غامقٍ تدلّى من بين تجاعيد وجنتيهما.

كان ياسر صالح يشرف على إيصال القهوة للمعزّين وبين كل لحظة ولحظة يُذكّر المعزين بالدعاء للمتوفاة. دار على كبار سكان الحي مقبّلاً رؤوسهم ومُظهراً الخضوع والاحترام للسنوات الطوال التي يحملونها على أكتافهم، ولا تكاد لحظة تعبر من غير الالتفات إلى عين فائز ليتلقى أوامره أو انتظارها.

بلغ سليم القليل مما يُقال في ياسر، وعرف أن أهل الحارة يلقبونه بعاشق الحي، فقد ظلّ رابضاً أمام بيت فائز ينتظر أن تلمح عيناه هيام لكي يعزيها.

المعزّون هم أهل الحارة، توافدوا لنقل الكلمات والنظر إلى ما تُسرّبه العيون. ثمة حكايات كثيرة قيلت في الحي خلال الفترة الماضية، فمنذ مداهمة رجال قوات الطوارئ بيته والكلمات تفيض عفا تستوعبه الآذان، وكانت أمنية سليم أن تمضي الأيام لتجفّف كلّ ما يُقال، لكنه لم يكن يرغب في أن يرى نفسه في هذا الوضع: موت قطوف وحضوره كحيوان نهش أعضاءها

وهي حية وجاء لينبش جثتها من القبر ليستكمل نهش ما تبقى من سيرتها.

كان فائز يقف وحيداً في صف العزاء يتقبل المواساة بعينين كالجمر. ثمة يقين مفاجئ داهم سليم بأنه هو الأحق بتقبل العزاء في قطوف، وفي خطوة سريعة سحب كرسياً ووقف بجوار فائز لتقبل العزاء وما إن فعل ذلك حتى هبّ جميع المعزين لتعزيته.

كانت الأيدي تتقابل كأنها تسرّب أسراراً كانت بحوزتها وجاءت لتسليمها لصاحبها مع الاعتذار أن صدورهم لم تعد تتسع لتلك الأسرار.

تكلّم فائز متأتئاً وزبد شدقيه يتطاير وهو يطلق تهديداته؛ كان راغباً في إخراج حمم زفيرٍ خمد في جوفه ونسي إخراجه منذ ذلك اليوم البعيد.

هذه المرة كان يحمل صبره المتعفّن ويلقيه خارج أعماقه كأنه يلقي قاذوراته القديمة في مرمى النفايات... قذر!

– يا سليم، لم يكن قطف رقبة ابنك إلاّ ردّاً لدَينٍ قديم!

كان متيقناً من أن فائز هو من قتل فيصل ولم يكن يدري أن هذا السر الذي أفضى به للتو كان منجاةً لقلب سليم لكي لا يحقد على قطوف في ما تبقى له من عمر.

وصل طارش للتو لائماً فائز على دفن ابنته قبل أن يراها، وعلى باب السرداق تواجه مع سليم، لم يكن

بينهما كلمات سوى انهيار سليم والإمساك بيد طارش يلثمها ويبلّل بشرتها بدموعه.

لم يعرف أحد بعشق قطوف لفيصل سوى اثنين أحدهما مات والآخر مازال حياً ميتاً بهذه الحقيقة.

بعد مجادلة اقتنع فيها سليم بأنه يؤدي دوراً يكمل به طوراً من أطوار الحياة، نهض متلفعاً بشاله البرتقالي ومتكئاً على عكازه:

– سوف أصحبك.

القلع والبذر عمليتان متسقتان ليستا بإرادتنا. هما قانونٌ أزلي، فما يتم اقتلاعه يكون قد استنفذ وجوده الظاهري. ربما يتحلل ويظهر مع بذرة أو يغدو هو بذرة.

والعمليتان أخطأت فيهما اللغة، فإذا كان البذر والقلع فعلين قادمين من خارج ذاتيهما، فهذه عناصر في معادلة لا يستقيم معها القول بالصدفة.

وليست صدفة أن يكون ياسر بذرةً تريد أن تستوطن قلب هيام كي تقلع سيرة قطوف. توجه سليم صوب بيت فائز لاعناً وجوده الذي يصفه دائماً بالشوكة في أسفل الحلق وزفر من أعماقه.

– أحب الجميع قطوف لكن معادلتها أدخلتها مع عنصرٍ قبيح.

وقتٌ مشؤوم اختاره ياسر للبذر، لم يكن يعلم أن الأرض التي اختارها لم تكن راغبةً في وجوده أصلاً.

بعد أن أذى سليم دور العزاء كان في حاجة أن يعود إلى غرفته ويعزّي نفسه. كم من أفعال خادشة نرتكبها في حياتنا وتمضي لكن الفعل الفاحش ذاك الذي يبقى في الأذهان ينساه الزمن ولا تنساه الذاكرة. كثرّ

يتعاملون مع سليم ويُظهرون حسن المودّة، لكنهم لم يردموا سيرة "الكيلوت الأحمر"... مضت قطوف حاملةً فريةً لم تنسها ذاكرة الحي.

ياسر صالح البكري وجد نفسه متورطاً في عشق هيام ولم يدع باباً إلا طرقه، وفي كل مرة يقابَل طلبه بالرفض، هو اليوم يقف على رأس سليم مقبلاً وطالباً وساطته عند فائز. استغرب سليم هذا الطلب، كان قبل قليل يتذكر أن الناس لا ينسون وإذا بطلب هذا الشاب يؤكّد أن الأوعية الجديدة لا تحمل جلطات من سبقهم.

وهذا العاشق يبحث عن فوهة يصل من خلالها إلى حلمه. انتشى سليم لفورة العشق في قلب ياسر وأسرّ لنفسه: "ما زال للحبّ بذورٌ تُغرَس للغد".

الحياة تحمل كل المتناقضات وفق تعدّد تلوّن الكون، ففي اللحظة التي تنفي سابقتها تعود لتثبت نقيضها.

– يا عمّ سليم، لو جئتُ معي معتذراً عن كل شيء بدر منك تجاه العم فائز ربما يكون اعتذارك شفاعةً يقبل بها أن يزوّجني ابنته.

عظمت عليه نفسه كيف يلتقي فائزاً، فأراد التخفيف من استنكاره:

– يا ولدي، يمكن أن يقبل فائز بأيّ كائن إلا أنا.

وقبل أن يمضي في اعتذاره راقت له فكرة ياسر، اقتنع وفي داخله رغبةٌ بأن يعتذر لقطوف؛ رغبةٌ بأن يعتذر لها أمام كل إنسان سمع بفريته عليها. تناول شاله واتّكأ على عصاه، لم يكن مشواراً قصيراً أو طويلاً بل

مشوارٌ تقطع فيه أوديةً وحفراً وجبالاً وأرضاً موحلةً، سنوات من الحقد والعداوة. وقف خاشعاً أمام بيت قطوف منتظراً العفو، مستحضراً روحها وأخذ يتمتم بكل كلمات الاعتذار. أخرجه من خشوعه ذلك الصوت البغيض الذي يعرفه تماماً:

– لا حياكما الله ولا بياكما.

انتظرا قليلاً وعاودا الطرق:

– أنتما تحديداً لا يمكنكما دخول منزلي.

كان ياسر ميمّماً بصره نحو أيّ نافذة من بيت فائز، علّ هيام ترأف بحاله، فقد قطع كلّ المشاوير لكي يصل إليها، وهي تضع جبال الدنيا حائلاً بينه وبينها.

أظهر سليم عجزاً عن إتمام مهمته، فأمسك بكتفي ياسر متمتماً:

– لا يفنى الكون وفيه عاشق!

ومضى يجرّ خطواته نحو غرفته لكي يواصل سكب اعتذاراته على مسامع قطوف.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

ينشأ أثناء السكون فعلٌ متحرك، فلا وجود للصدفة. الصدفة هي لحظة التوقف المتولّدة منها معادلة الوجود... الحركة... الحياة... الأحلام... فكل حركة تتجه بنا نحو الفناء أو الحياة.

تستقبلك شخصيات تنزع لإحداث حلمها، وتتوق لاكتمال وجودها متخطية قدرها بإيمان أن الواقع ما هو إلا نتاج لأماني صُنعت في الغيب...

وها هي قطوف تبذر قصة هوى لم يرتهن للصدفة، مثلها مثل فائز الذي ثابر للوصول إلى حلمه... وبين واقعين تتناثر الألوان والحب والضغينة والتطرّف... فهل صِدقاً أن الحياة تصفو حينما نحب لتغدو نفوسنا معراجاً لها؟

نبذة عن المؤلف

عبده خال كاتب وروائي سعودي.